رجب البنا

معجزات الخلق والخالق

دار المعارف

تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى الدكتور منصور حسب النبى
الذى لم أقابله ..
وتلاقت أرواحنا بعد رحيله ..
فصار صديقى ..!

رحب البنا

مُقَدِّمَة

هذا الكتاب وليد الصدفة.

بغير تخطيط سابق وجدتنى غارقا فى أبحاث لعلماء تفرغوا لدراسة بعض أسرار القرآن.. واكتشفوا من دراساتهم أن بعض الآيات لا يمكن فهمها الآن فى القرن الحادى والعشرين - كما كان يفهمها المسلمون الأوائل فى القرن السادس - لأنها تشير إلى حقائق لم يتوصل إليها العلم إلا مؤخرا، وهذه معجزة أخرى تضاف إلى ما فى القرآن من أوجه الإعجاز.

ووجدتنى - دون قصد - مشدودا إلى هذه الآفاق الجديدة من الاكتشافات التى توصل إليها علماء الفلك والجيولوجيا والفيزياء والبيولوجيا ووجدوا فى القرآن آيات تتفق مع ما استقر عليه العلم من الحقائق الثابتة فى هذه الاكتشافات..

فى نفس الوقت كنت مشغولا بمتابعة الحملات على الإسلام منذ فجر الدعوة وحتى اليوم، فوجدت أن ما سجله القرآن من اتهامات المنكرين وأعداء الإسلام، ما زال يتردد إلى اليوم، ابتداء من القول بأن هذا القرآن ليس من عند الله ولكنه من عند محمد، إلى ادعاءات بعض المستشرقين بأن الإسلام ليس ديانة من الديانات السماوية ولكنهم يسمونه (المحمدية) Mohamadinism، وكأنه مجرد دعوة أخلاقية من رجل حكيم كما هو الحال فى الكونفوشية التى تنسب إلى كونفوشيوس، وهناك كتب ومقالات وأقسام فى جامعات مخصصة

لتقديم أدلة مغلوطة ومسمومة على صحة ما يوجه إلى الإسلام من اتهامات بجميع لغات العالم، ويجب ألا نغفل الدور الذى تقوم به المؤسسات والمحافل الصهيونية العالمية لتشويه الإسلام بكل الوسائل.

ولقد أتيح لى أن أزور عددا من الدول الأوربية، وأن ألتقى على موائد حوار مع مفكرين وباحثين وعلماء أديان ومؤرخين، بعضهم كان يدرك حقيقية الإسلام، ويعترف بأن القرآن كتاب من الله، وأن محمدا رسول الله حقا، وبعضهم كان ينكر ذلك، ويجادل، ويجهد نفسه فى افتعال الدليل لتشويه الإسلام من كل وجه، وتشويه المسلمين وعقائدهم وعباداتهم، وقد أشرت إلى بعض ما سمعت فى كتاب (الإسلام والغرب) وأرجو أن تتاح لى فرصة لأستكمل عرض وتحليل ما يقال فى الهجوم على الإسلام والقرآن وعلى المسلمين وعلى العقل الإسلامى والحضارة الإسلامية.

ولم يكن كل ذلك يثير القلق فى نفسى، لأنى واثق بأن مثل هذه الحملات لن تتوقف، وسوف تستمر إلى آخر الزمان، وهذه إرادة الله، أن يظل الحق والباطل فى صراع إلى يوم الدين، ليمحص الله الذين آمنوا، وحتى يمكن الحكم على صدق المؤمن لابد من أن يمتحنه فى إيمانه، ويتعرض لحملات تسعى إلى إثارة الشكوك فى نفسه، أوالتقليل من شأن عقيدته، وهذا هو ما نبهنا إليه الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾

(آل عمران: ١٤٢)

والثبات على الحق أمام جحافل الباطل يحتاج إلى قوة إيمان وشجاعة، ويقين.

وتوقفت كثيرا عند آيات فى القرآن تلفت الأنظار إلى دراسة ومحاولة فهم هذا الكون بآفاقه ومعجزاته ليرى الإنسان عظمة الخالق تتجلى فى هذا الكون المذهل، كما تتجلى فى مخلوقاته من النملة إلى الإنسان، ووجدت أن هذا الآيات كثيرة، وتعجبت: كيف لم يفعل المسلمون ما أمرهم به الله وكرر لهم الأمر فى أكثر من آية وينظروا فى ملكوت السموات والأرض:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(الأعراف: ١٨٥)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾(ق: ٦)

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية: ١٧ - ٢٠)

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ (الروم: ٥٠)

﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ (الأنعام: ٩٩)

﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)

﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت: ٢٠)

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الواقعة: ٦٣)

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الواقعة: ٦٨)

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الواقعة: ٧١)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ (الحج: ٦٣)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الحج: ٦٥)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ (النور: ٤٣)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ (لقمان: ٢٩)

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الروم: ١٩)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ (الروم: ٢٣)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الروم: ٢٤)

وهذه الآيات يحتاج تفسيرها على وجهها الصحيح إلى دراسة ظواهر وحقائق كونية لم يتوصل إليها العلم إلا مؤخرا، وقد جمع الله للإنسانية فى القرآن العلم والدين، ليكون ذلك منهج التفكير والمفكرين، ويكون أساس هذا المنهج أن العلم فى الإسلام لاينفصل عن الدين، وكان مدهشا بالنسبة لى أن أصل إلى قوله تعالى فى سورة الروم آية٢٢: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ لأرى أن المراد بالعالمين هنا ليسوا علماء الدين فقط، ولكن أيضا العلماء الدارسون للسموات والأرض وأسرار ما فيها، والدارسون لأجناس الناس والشعوب واللغات وأسرار اختلافهم، وهؤلاء

هم العلماء بالمعنى الحديث. فالقرآن إذًا لا يفرق بين العلوم الشرعية والعلوم الكونية والطبيعية، ويجمع بينها فى تكامل تام، ويرجعها إلى الخالق، وإذا كان هناك انفصال بين العلوم فهذا الانفصال نظرى بحت لضرورات البحث والتخصص، إن كان كل علم من العلوم الطبيعية والدينية ينقسم الآن إلى فروع كثيرة، فإن هذه العلوم المتعددة التى تبدو منفصلة، تجمعها وحدة، هى وحدة المصدر، مصدر كل الظواهر التى يدرسها كل العلماء: المصدر هو الله سبحانه وتعالى. ومن هنا تبدو حقيقة (وحدة العلوم) أو (وحدة المعرفة) كما توصل إليها المفكرون وفلاسفة العلوم أخيرا. علوم الدين إذن ليست منفصلة، أو منقطعة الصلة عن علوم الدنيا، وبالتالى فإن فهم القرآن وتفسيره لا يكتمل إلا فى ضوء كل العلوم وكل المعارف التى توصلت وتتوصل إليها الإنسانية.

ولقد عشت أوقاتا ممتعة غارقا فى بحر بلا قرار وأنا أتأمل عظمة الخلق والخالق من خلال قراءات لأبحاث علماء لهم مكانتهم الكبيرة فى تخصصاتهم، واطمأن قلبى إلى تفسيراتهم بعد أن وجدت ترحيبا بهذا المنهج الجديد فى تفسير القرآن من شيوخ الأزهر العظام من أمثال الشيخ محمد عبده، والشيخ حسن مأمون، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ محمد سيد طنطاوى..

وأردت أن أقدم بعض ما وصلت إليه وهو كثير.. لكن غايتى أن أؤكد أننا نخطئ عندما نفصل بين العلم والدين عموما، وبين القرآن وحقائق العلوم على وجه الخصوص، وقد أصبحت لدينا ذخيرة عظيمة من اجتهادات المفسرين من مدارس التفسير المختلفة.. أكثرهم فسر

القرآن تفسيرا لغويا، وكشف بعض ما فيه من البلاغة المعجزة التى يستحيل أن تكون من لغة البشر.. وبعضهم اهتم بأسباب نزول الآيات حتى يمكن فهمها فى ضوء ملابسات نزولها.. وبعضهم ركز على استخلاص الأحكام الفقهية والأوامر والنواهى التى أرسل الله رسوله ﷺ بها للبشر.. والآن.. وقد وصلنا إلى عصر تقدمت فيه العلوم تقدما مذهلا.. وخرج الإنسان من الأرض إلى الفضاء ورأى بعينيه الفضاء الكونى الرهيب وما فيه، ودخل العلماء إلى أدق مكونات الكائن الحى وهى الخلية وأوشكوا أن يصلوا إلى حل الشفرة الوراثية للإنسان وهى الخلية التى تحمل جميع الخصائص والصفات والاستعدادات الفريدة لكل إنسان، كما توصلوا إلى الاستنساخ، ومعرفة أسباب كثير من الأمراض واكتشاف علاجات لها.. و.. و.. إنجازات العلوم شملت أبعادا كان من المستحيل أن تخطر على بال أحد من البشر منذ قرن واحد، فضلا عن أن تخطر على البال منذ أكثر من أربعة عشر قرنا حين نزل القرآن..

ولابد أن نشعر بسعادة كبرى عندما نجد أن العلوم والاكتشافات الحديثة قد جاءت لنا بأدلة جديدة على صدق القرآن وأنه - حقا - من عند الله تعالى بما لا يدع سبيلا للشك حتى لمن فى نفوسهم مرض، فنزداد يقينا على يقين، ونثبت على الإيمان مسلحين بما يناسب العصر.

وهذا يدعونا إلى الدعوة إلى تفسير جديد للقرآن.. تفسير كامل متكامل.. يبين جوانب الإعجاز فيه من كل وجه، ويضعه لنا مجموعة من علماء الشريعة وعلوم الطبيعة والأرض والفلك والحياة.. الخ.

يدعونا ذلك أيضا إلى الدعوة إلى تدريس التفسير العلمى للقرآن فى المدارس والجامعات، لكى نقضى على الازدواجية فى التفسير والفهم والتفكير بين العلوم الشرعية التى يسمونها العلوم النقلية لأنها مستمدة من أقوال السابقين، وبين العلوم الطبيعية والتجريبية والعلوم العقلية.

وقبل رحيلة بقليل كتب الدكتور منصور حسب النبى بصفته رئيسا للجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن رسالة إلى الإمام الأكبر شيخ الأزهر طالب فيها بالعمل على اعتماد منهج القرآن بإظهار ما فيه من جوانب الإعجاز العلمى، واستخدام هذا النهج لإثبات صدق نبوة محمد ﷺ، وتقديم خلاصة الأبحاث فى هذا المجال باللغات الأجنبية ليصل إلى غير الناطقين باللغة العربية وما أكثرهم، ولكى يكون الوسيلة التى تقنع غير المؤمنين به على اختلاف بواعثهم، ولتثبيت الإيمان فى نفوس شباب المسلمين الذين يتعرضون لتيارات شديدة وخبيثة من الغزو الفكرى، والانحلال الموجه عبر الأقمار الصناعية والفضائيات والانترنت وغيرها من وسائل الإعلام الحديثة التى تستخدم ضد الإسلام.

والدكتور منصور حسب النبى بدأ رحلته مع الاعجاز العلمى للقرآن منذ عام ١٩٨٠ فى مجلة أكتوبر، وألقى أحاديث وأجرى لقاءات فى الإذاعة والتليفزيون، وله مؤلفات باللغتين العربية والإنجليزية، وظل حتى آخر يوم فى حياته مجندا نفسه لهذه الدعوة.. يلقى محاضرات فى المواسم الثقافية للجامعات، ويتحدث فى النقابات وفى سرادق الحسين فى شهر رمضان، ويلقى أحاديث فى المساجد بالقاهرة والأقاليم، وكانت رسالته التى كرس حياته لها هى تدعيم الوعى الجماهيرى بالإعجاز العلمى للقرآن، وخلال هذه السنوات لم ينقطع

عن المشاركة فى المؤتمرات التى عقدت فى القاهرة ومكة وإسلام آباد وموسكو وبالنرويج بين عامى ٨٧ و٩٤، وتولى رئاسة الجمعية المصرية للإعجاز العلمى للقرآن منذ عام ١٩٩١ حتى وفاته عام ١٩٩٨.

ونتيجة هذا الجهد الخارق، وإحساس الدكتور منصور حسب النبى بأنه صاحب رسالة يحرص على أدائها كاملة قبل أن يفرغ الأجل، فإن القضية أصبحت مطروحة على الساحة لتأخذ دورها فى الدعوة الإسلامية باستخدام الإشارات العلمية فى القرآن، كما أنه أشرف على رسالة ماجستير فى فلسفة العلوم كان موضوعها «المنهج القرآنى فى بحث العلوم الطبيعية» ورسالة أخرى للدكتوراه موضوعها «الزمان فى القرآن الكريم» وقال إنه مؤمن بأن العمل الأكاديمى فى المعمل لا ينفصل عن الإيمان.

وكان الدكتور منصور حسب النبى قد التقى بفضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى ١٩٨١ فى أم درمان ولم يكن قد تولى مشيخة الأزهر بعد. وشجعه فضيلة الدكتور طنطاوى على السير فى هذا الطريق، كما التقى الدكتور حسب النبى بشيخ الأزهر فى ذلك الوقت الإمام الكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق رحمه الله وعرض عليه منهجه فشجعه على تأسيس الجمعية، وعلى نشر كتاب له باللغة الإنجليزية بعنوان «القرآن والعلم الحديث» عام ١٩٩٠.

وقد شارك الدكتور منصور حسب النبى فى جمعية الإعجاز العلمى للقرآن التى نشأت عام ١٩٨٨، مؤسسا، وعضوا فى مجلس إدارتها، وسكرتيرا عاما، ثم رئيسا لها، ولكنه - بأمانة - قال إن هذه الجمعية لم تستطع تحقيق معظم أهدافها لضعف إمكاناتها، فاقتصر نشاطها

على عقد ندوات فى دار الطفل بالدقى، وجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، وجمعية مصطفى محمود التى استضافت الجمعية لعدم وجود مقر مناسب لها، وحاول بعض المؤسسين المؤمنين بالقضية مع الدكتور حسب النبى الإبقاء على هذا النشاط المتواضع رغم ضعف ميزانية الجمعية والذى لم يكن يكفى لمجرد تغطية المصروفات الضرورية لنشاطها الثقافى فقط، ولذلك استحال على لجان هذه الجمعية أن تنفذ خطتها وفيها لجان من علماء لهم قدرهم،مختصة بالدعوة،والترجمة، والنشر، والتوثيق، والاتصالات..

لذلك توجه الدكتور حسب النبى إلى شيخ الأزهر يناشده أن يرعى هذه الجمعية، وأن ينشىء «مركز بحوث الاعجاز العلمى» بالأزهر أو بجامعة الأزهر، بحيث يختص هذا المركز بتطوير وتقييم ونشر البحوث الجديدة عن الإعجاز العلمى للقرآن، ووضع ضوابط للكتابة فى هذا الموضوع، وتقييم المؤلفات والمقالات المنشورة والاستفادة من الجيد والأصيل منها، كما اقترح ان يتولى هذا المركز إصدار مجلة علمية متخصصة لنشر البحوث العلمية المنهجية فى مجالات الإعجاز العلمى للقرآن بعد إجازتها من لجنة من المتخصصين فى العلوم الكونية والشرعية، وإصدار مجلة أخرى جماهيرية لتنشر فكر الإعجاز العلمى للقرآن، ويكون هذا المركز هو الجهة العلمية التى تتولى تشجيع بحوث الإعجاز العلمى وتخصيص منح دراسية وجوائز مالية وتقديرية للباحثين فى هذه المجالات للباحثين فى أنحاء العالم.

وكانت فكرة الدكتور منصور حسب النبى أيضا أن يسعى الأزهر بما له من نفوذ وسلطة أدبية كبيرة للعمل على التوجيه الإسلامى للعلوم

فى مراحل التعليم الأزهرى والتعليم المدنى، وإعداد منهج لتدريس مادة جديدة فى كل كلية وكل معهد أزهرى عن الإعجاز العلمى للقرآن، بالاستعانة بالإشارات القرآنية للحقائق الكونية التى توصل إليها الباحثون والعلماء.

كان طموح الدكتور منصور حسب النبى أكبر من طاقته، وتوجه إلى الأزهر على أمل أن يستجيب لدعوته بالاتصال والتعاون مع الجهات والمنظمات الدولية والإسلامية والجامعات لتبادل البحوث التى تخدم قضايا الأبحاث والتوجيه الإسلامى للعلوم، والتربية الإسلامية، وكان المشروع الذى تقدم به يشمل الاستعانة بمراكز الترجمة والنشر والإعلام داخل الأزهر وخارجه لدعم البحوث التى تتم فى هذا المجال، وإعداد الردود العلمية باللغات الأجنبية على الافتراءات التى تنشر وتذاع عن الإسلام ورسوله، والاشتراك فى عقد ندوات ومحاضرات ومؤتمرات داخل وخارج العالم الإسلامى لطرح موضوعات الإعجاز العلمى.

كان طموح الرجل كبيرا، أكبر من طاقته وطاقة الجمعية التى كان يرأسها، وكان يأمل أن يجد من الأزهر وجامعة الأزهر ما يحول حلمه إلى حقيقية، وينشأ مركز أبحاث الإعجاز العلمى للقرآن فى الأزهر، أو جامعته، أو مجمع البحوث الإسلامية، وينشأ قسم للإعجاز العلمى للقرآن فى كليات أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر وفروعها.

ولا يزال هذا الحلم قائما ينتظر التحقيق..

فى الكون سر يحير العلماء

يمتاز الإنسان عن الحيوان بالعقل، وهذا العقل هو الذى جعل الإنسان منذ نشأته يفكر، ويحاول أن يفهم ما حوله من ظواهر الطبيعة ويتطلع إلى الكون بحثا عن السبب أو العلة أو القوة العظمى التى جعلت ما فى المادة والطبيعة والكون يخضع لقوانين ثابتة ونظام مذهل..

وبالعقل الذى بدأ الإنسان به رحلة البحث عن القاعدة أو القانون والأسباب وراء الظواهر، بدأ أيضا رحلة البحث عن الله.. فى بدايات نشأة العلم فى مصر القديمة والصين والهند ارتبط العلم بالعقيدة الدينية، وفى مرحلة متأخرة اعتقد العلماء أنه ليست هناك علاقة بين العلم والدين، وفى مرحلة كان رجال الدين ضد رجال العلم حتى إن الكنيسة حكمت بالإعدام على جاليليو لأنه قال إن الشمس هى مركز الكون وأنها تدور على عكس ما كان سائدا فى ذلك العصر من أن الأرض هى مركز الكون وأنها ثابتة والشمس هى التى تدور حولها، وأمام جبروت الكنيسة فى عصور أوروبا المظلمة اضطر جاليليو إلى كتابة وثيقة اعتذار يتراجع فيها عن الحقيقة العلمية التى اكتشفها ودخلت هذه الوثيقة التاريخ لأنه يقول فيها:

«أنا جاليليو جاليلية، البالغ من العمر سبعين عاما، والراكع أمام سموكم أصحاب المقام الرفيع السادة مطارنة محكمة التفتيش، وأمام

عينى توجد الأناجيل المكرمة التى ألمسها بيدى، أقسم بأننى سوف أكف تماما عن الرأى الخاطئ القائل بأن الشمس هى مركز الكون، وهى ليست متحركة، وأن الأرض ليست المركز وهى متحركة، وليس من المسموح لى اعتبار هذه التعاليم الخاطئة بأنها حق، أو الدفاع عنها، أو تدريسها بأية طريقة، سواء شفهيا، أو تحريريا، بعد أن كشفتم لى أن هذه التعاليم تتناقض مع الكتاب المقدس.. لذلك فإننى أعلن أننى تبت، وألعن وأسب بقلب مخلص وبعقيدة صافية، الضلالات والزندقة المذكورة، وعلى الإطلاق ألعن كل وأية ضلالات أخرى تتناقض مع الكنيسة المقدسة.. أنا المدعو جاليليو جاليلية تبت وأقسمت ووعدت وألزمت نفسى كما هو مذكور أمامى، وللتصديق فقد قطعت هذه الشهادة التى قرأتها كلمة كلمة على نفسى، ووقعتها بيدى. روما فى دير المنيرفا فى ٢٢ يونيو عام ١٦٣٣».

وبعد هذا التراجع والاعتذار حكمت محكمة التفتيش على جاليليو بالإعدام بتهمة الكفر لأنه قال إن الشمس وليست الأرض هى المركز، وقال إن الأرض هى التى تدور وليست الشمس، وخالف بذلك الحقيقة التى تفرضها الكنيسة على العلم والعلماء.

❑❑❑

كان هذا فى عصر وانتهى. ونحن الآن فى عصر آخر الكلمة الأولى فيه للعلم والعلماء، بعد أن وصل العلم إلى درجة مذهلة من التقدم ووصل إلى ما يشبه الخيال.. فقد وصل العلماء إلى القمر.. ونزلوا على سطحه وجمعوا حجارة من هناك وعادوا بها إلى المعامل وقاموا

بفحصها وتحليلها.. وذهبوا إلى الفضاء وشاهدوا الكواكب السيارة وصورها، واكتشفوا الذرة وهى أصغر شىء فى الوجود والتى كان الاعتقاد أنها الجزء الذى لا يمكن أن ينقسم، ولكن العلماء وجدوا أنها مليئة بالحركة، وأنها يمكن أن تنقسم وتتحول إلى طاقة هائلة وإشعاع قاتل، وفتحت الذرة بابا للهلاك وأبوابا للرحمة.. للعلاج.. والتعقيم.. وتوليد الكهرباء.. و .. الخ.

العلاقة بين العلم والدين قصة طويلة ومثيرة.. فيها فصول كان العداء صريحا والصراع على أشده بين رجال الدين والعلماء، وفيها فصول كان هناك توافق بين الجانبين، وخاصة فى عصر نهضة العلوم فى الدولة الإسلامية، لأن العلماء كانوا مؤمنين، وكانوا يبحثون بالعلم عن القدرة الإلهية، وعن أدلة على صدق ما جاء فى القرآن من إشارات لبعض الحقائق العلمية.. فى هذه المرحلة ظهر علماء مسلمون تركوا بصمة واضحة على العلوم الطبيعية والرياضية أمثال الخوارزمى، والطوسى، وابن سينا، وفى العصر الحديث حدث انقسام واختلاف فى مواقف العلماء، بعضهم قال إن ظواهر الطبيعة مجرد تفاعلات مادية وفى إمكانهم أن يشاهدوا ويتحكموا فى معاملهم فى المادة، ولكنهم لا يستطيعون أن يشاهدوا الله فى المعمل، وبعض العلماء قالوا إنهم يرون الله ويلمسون قدرته فى كل ما يشاهدونه ويدركونه فى المعمل أو فى الطبيعة، أو فى الإنسان، أو فى الكون.. هكذا دخل التاريخ مئات من العلماء منكرين ومؤمنين.. دارون ونظريته عن التطور يمكن أن تخرج منها دون أن ترى أن قدرة الله هى التى جعلت

الكائنات تتطور من الخلية الواحدة إلى إنسان يقف على قدميه وله عقل وإرادة.. ويمكن أن تجد فيها عكس ذلك.. والمسألة تتوقف على من أنت؟ هل لديك استعداد للاعتراف بما تراه من معجزات القدرة الإلهية فتؤمن بوجود الله، أو لا تؤمن؟ وهكذا سوف يكون موقفك من دارون ونيوتن وأينشتين حتى أحمد زويل.

نفس القصة تتكرر الآن.

❑❑❑

هناك علماء ومفكرون يرون ضرورة الفصل بين العلم والدين، بحيث يكون لكل منهما ميدان ومجال مستقل، وبذلك يكون للعلماء حرية البحث دون أن تقيدهم التعاليم الدينية، ويكون لرجال الدين أن يتحدثوا عن الفقه والأخلاق والعبادات دون أن تصل بهم الجرأة إلى اقتحام ميدان لا يدخل فى اختصاصهم هو ميدان العلم.. ولكن كيف تمنع عالما مؤمنا إذا وصل إلى حقيقة من حقائق الكون أن يرجع إلى كتاب الله ويربط بين ما وصل إليه وما فى وجدانه من الإيمان بكلام الله؟.. وكيف تمنع أحد العلماء إذا اكتشف علاقة بين نتائج الدراسات العلمية وإشارات فى القرآن؟

هل نقول لهذا العالم اسكت.. لا تقل ما لديك من حقائق تزيد المؤمنين إيمانا، وقد تهدى الضالين إلى طريق الإيمان؟!

وقد دعانا الله صراحة إلى البحث والنظر فى الإنسان وفى الكون وفى النبات والحيوان.. لأن العلم سيقودنا حتما إلى الإيمان.. وهذا

ما فعله الدكتور عبد العليم خضر وفعله كثيرون غيره آخرهم الدكتور زغلول النجار وهناك عشرات الكتب والأبحاث ذات القيمة العلمية الكبيرة فيها النظريات التى يتحدث عنها الدكتور زغلول النجار فى أحاديثه عن التفسير العلمى للقرآن.

❑ ❑ ❑

فى جزيرة مدغشقر «مالاجاش» عثر العلماء على شجرة يسميها سكان الجزيرة «شجرة المسافرين» تحمل حوالى ٢٤ ورقة يختلف طولها بين متر و٨٠ سنتيمترا، وقد تصل إلى مترين وأكثر، وهى أشبه بالمظلات فى قلب صحراء شديدة الحرارة، مقفرة، يمكن أن يهلك فيها المسافر إذا لم يجد فرصة للاستراحة تحت هذا الظل.. وتحت كل ورقة نبات يشبه زجاجة المياه المعدنية، وفيها حوالى لتر من الماء الصافى.. والعجيب أن هذا النوع من الشجر ينبت فى قلب صحراء قاسية قاتلة، وفى الأيام شديدة الحرارة، وعندما يكون المسافرون على وشك الهلاك عطشا، يجدون الظل والماء فيشربون منها، ويتركونها، فتلتحم مرة أخرى من جديد وتعبأ بالماء من جديد.

هل نمنع المؤمن أن يقول: سبحان الله، وحين يتأمل هذه المعجزة فيقول: هذه رحمة ربنا بعباده؟

وفى فنزويلا أشجار غريبة، فعندما تنقطع الأمطار ويعانى الناس والحيوان والنبات من الجفاف وندرة المياه، وتمر شهور دون أن تصل قطرة ماء إلى هذه الأشجار، تبدو كأنها أشجار ميتة، ولكن بمجرد أن يجرحها شخص بسكين ينسكب منها لبن أبيض فيه حلاوة فيشرب

منها العطشان.. وعندما قاموا بتحليل هذا اللبن وجدوا أنه يحتوى على العناصر الغذائية اللازمة للإنسان، هل نمنع من يرى هذه الأشجار أو يسمع عنها من تذكر قوله تعالى فى سورة الشعراء آية٧:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

وشجرة «الأراك» هى الشجرة الوحيدة التى يأخذ منها المسلمون «السواك» وهى تنمو فى شبه الجزيرة العربية، وأمر الرسول ﷺ المسلمين باستعمال السواك، وقال لهم «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»

ولم يدرك أحد حكمة هذا الأمر إلا بعد أن قام العلماء الأوربيون بتحليل السواك فاكتشفوا أن فى السواك مواد تثبت الأسنان، وتطهر الفم من الجراثيم، وتعالج تقرحات اللثة وضعفها، وتجد فى صيدليات أوروبا الآن معجون أسنان من السواك.. فهل تمنع العالم الذى يكتشف أو يعرف مثل هذه الحقائق من أن يردد قوله تعالى فى سورة الشعراء آية٨٠: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾.

وفى القرآن إشارات إلى تنوع صور الحياة النباتية على الأرض، وجاء العلم متفقا مع ما جاء فى القرآن.. ففى الكون أكثر من نصف مليون صنف من النباتات والأشجار مختلفة فى اللون والشكل والحجم وكلها تسقى بماء واحد، تدل على القدرة الإلهية:

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الرعد (٤).

وفى مملكة الحيوان معجزات لا تتحقق بالمصادفة.

❑ ❑ ❑

فى الأرض أنواع من الحيوانات تفوق الحصر.. وتوزيع هذه الحيوانات فى منتهى الدقة.. فى المناطق الاستوائية التى يسود فيها الحر والمطر الغزير طُوَال العام تعيش فى غابات هذه المناطق قبائل من القردة، والزواحف، والسنجاب، والسلحفاة، وأسراب من الطيور.. وعلى أطراف الغابات الاستوائية يكون الصيف حارا والشتاء دافئا تعيش جماعات من الفيلة والنمور والضباع.. فإذا تدرجنا إلى أقاليم المراعى الحارة فالبيئة صالحة لجماعات الأفيال، والنمور، والقطط البرية، والجاموس الوحشى، والبقر الوحشى، والزَّرَافَى - جمع زرافة - والحمار الوحشى، وعلى الأطراف تنمو الحشائش وتعيش عليها الغزلان والأبقار.. وفى المناطق التى تقل فيها الأمطار والصحارى الحارة فهى صالحة لحياة الإبل والماعز والظباء.. وفى المزارع المعتدلة الدفيئة تعيش الأبقار والخيول والأغنام، وفى الأقاليم القطبية حيث البرد القارس صيفا وشتاء تعيش جماعات الدب القطبى، والثعلب القطبى، وعجل البحر، والرنة، وطيور البطريق.

هل يحدث كل ذلك بالمصادفة؟.. أو وراءه حكمة.. وقانون إلهى جعل كل مكان على الأرض صالحا لحياة أنواع من الكائنات بعضها يعيش فى البرد الشديد، وسط الثلوج، وبعضها يعيش فى الحر الشديد، وبعضها يتحمل الجفاف والجوع والعطش، وبعضها لا يتحمل

الحر الشديد أو البرد الشديد أو الجوع أو العطش ويحتاج إلى مناخ معتدل ورزق وفير سهل.

هل تمنع عالما مؤمنا حين يدرس علم الحيوان أو الجغرافيا البشرية من أن يربط بين ما يراه وبين وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (هود: ٦).

وآية مثل: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ النحل: ١٥، كيف نفهمها إلا في ضوء العلم الذى توصل إلى أن معظم الجبال النارية القديمة زالت بفعل عوامل التعرية، وهذا الجزء الذى أزيل هو الذى تشير إليه الآية؟ فقد ألقيت هذه الأجزاء المقتطعة من الجبال النارية القديمة التى كانت قائمة عند نشأة الأرض، وسقطت فى الأحواض البحرية الداخلية.. وعند ذكر «جبال» يقول الله عن بعضها أنه «جعل» والنوع الآخر يقول: «ألقى» ولم يفهم المفسرون الفرق بين الحالتين إلا بعد الاكتشافات الأخيرة..فقوله﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ إشارة إلى الجبال الشامخة التى تسمى السلاسل الجبلية الالتوائية وهى فى أوربا وآسيا وأفريقيا واستراليا وهى التى تثبت الأرض وتحفظها من الاضطراب.. والوظيفة التى اكتشفها علماء الجيولوجيا لهذه الجبال الرواسى أن لها امتدادات تحت القشرة الأرضية، وسمك القشرة الأرضية تحت القارات ٥كيلو مترات، ولكن يصل سمك القشرة الأرضية تحت الجبال إلى ٣٥ كيلو متر..وهذه الجبال على شكل

أوتاد، ووظيفتها تماما كما ذكر القرآن ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ (النبأ: ٦-٧). يقول العلماء إنهم وجدوا أن الجبال هي «مساكات» للقارات في الصخور السائلة التي توجد تحت القشرة الأرضية.. فالقشرة الأرضية الصلبة خمسة كيلو مترات. تحتها صخور سائلة.. فإذا كانت الأرض تعوم على سائل فلماذا لا تموج ولاتضطرب؟ لأن الجبال تمثل الجذور أو الأوتاد منغرسة في طبقة الصخور السائلة.. وهذه الحقيقة لم يعرفها العلماء إلا في سنة ١٩٥٦ أي أن القرآن سبق بألف وثلاثمائة وخمسين عاما.. والتقى العلم والقرآن أخيرا في هذه الحقيقة الجغرافية.

هل في ذلك ما يدعو إلى اعتراض المعترضين على محاولة العلماء لفهم القرآن في ضوء اكتشافات وحقائق العلم الحديث؟

❑ ❑ ❑

والجبال مخازن عظيمة للمعادن.. فيها النحاس والحديد والرصاص والمغنيسيوم والكالسيوم والجبس والكبريتيد وخامات الزنك والفضة والذهب والرخام والفحم والفوسفات والمنجنيز والنيكل والقصدير.. وبعض الجبال فيها مدرجات صالحة للزراعة اعتمادا على الأمطار كما في منطقة جيزان بالسعودية، وعلى قمم الجبال تتكون الثلوج شتاء وتذوب في الصيف وتتحول إلى جداول وأنهار.. وهكذا يجد الناس رزقهم من الجبال.. ألا تجد في ذلك تصديقا لقوله تعالى:

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: آية ١٩) ؟

أى أن فى الجبال منافع لحياة الناس والكائنات الحية الأخرى . . ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (ابراهيم: ٣٤) و(النحل: ١٨).

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾(فصلت: ٣٩)، و ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) العلماء اكتشفوا أن الوسط الذى نشأت فيه جميع أنواع الحياة هو «البروتوبلازم» وهو محلول لعدد من المواد معلق فى الماء، ولايمكن أن توجد حياة بدون بروتزبلازم ولا يمكن أن يوجد بروتوبلازم بدون ماء.. الماء فى كل شىء حى.. ليس فى الإنسان فقط ولكن فى الحيوان وفى النبات وحتى فى الطحالب والبكتريا.. وإذا تأملت الدورة التى تمر بها المياه.. المساحة الكبرى من الكرة الأرضية ماء.. محيطات وبحار وأنهار.. المحيطات فيها أكبر قدر من المياه فى الكون.. والأنهار فيها كميات أقل.. الأنهار مياهها عذبة صالحة للشرب والرى.. والأنهار تتجه فى حركتها إلى البحار والبحار تصب فى المحيطات، المياه فى المحيطات شديدة الملوحة وفى ذلك حكمة الله.. هذه الملوحة تقتل الكائنات الدقيقة الضارة التى تنمو فى المياه الحلوة.. لأن البحار والمحيطات هى خزانات مياه هائلة فإن الملوحة تحفظ هذه الكميات الهائلة من المياه.. وبالحرارة يتبخر جزء منها.. فتصبح سحابا.. يتكون فى الطبقات العليا على شكل جبال يراها من يركب الطائرة إلى أن تسقط مطرا.. فتروى الأرض.. ويتسرب جزء منها إلى باطن الأرض ليغذى أنهارا تحت الأرض من المياه

الجوفية، ويتجه جزء آخر إلى الأنهار، وتتجه الأنهار إلى البحار.. وهكذا تدور الدورة.. فكيف يكون شكل الأرض بدون الماء؟ وكيف يكون حال البشر والحيوان والنبات، بدون الماء..؟ الموت أو الاقتراب من الموت.. فإذا وجد الماء تزدهر الحياة..

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ (فصلت: ٣٩)..

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ (النحل: ٦٥).

والعلماء يتأملون كل كلمة فى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ (النور: ٤٣). والودق هو الماء الذى ينزل من السحب فى مطر، ولم يدرك أحد كيف أن المطر ينزل من جبال فى السماء إلى أن صعد الإنسان فوق السحاب ورأى بعينيه أن السحاب يتجمع فى طبقات الجو على هيئة جبال، وهنا يشعر الإنسان بالإعجاز.. ويزداد إيمانا ويقينا بأن هذا القرآن لايمكن أن يكون كلام بشر.. ويشعر بالقدرة الإلهية التى تتجلى فى كل شىء فى الكون من أصغر شىء وهو الذرة والخلية والأميبا إلى أكبر شىء وهو الكون كله.. وهنا يعرف الإنسان حقيقة قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥) عندما يدفع الغرور الإنسان إلى تصور أنه امتلك زمام المعرفة..

ويجد الإنسان نفسه فى موقف الإقرار بالقدرة الإلهية.. ويسجد له عن طاعة وإقرار بالقدرة واستجابة لأمره تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (الحج: ٧٧).

بعض الناس يهديهم الله إليه.. فيعرفون قدره عن طريق العلم.. وعن طريق العقل.. وعن طريق القلب.. وبعض الناس يكتب الله عليهم أن يعيشوا فى ظلام العقل والقلب فلا يدركون ما بين العلم والدين من ارتباط لأنهما فى النهاية من مصدر واحد.. ولا يفهمون ما فى القرآن من إشارات إلى حقائق الكون والخلق والإنسان، لم يصل العلم إلى بعضها إلا حديثا.. ومازال طريق العلم طويلا ليكتشف الباقى.

قضية التفسير العلمى

ظهر الدكتور زغلول النجار فى التليفزيون فجأة.. ولم يكن أحد يسمع عنه، لأنه عاش حياته مغتربا فى بريطانيا.. وقدمه الأستاذ أحمد فراج فى حلقتين تحدث فيهما عن الإعجاز العلمى فى القرآن، فصار بهما أشهر متحدث فى التليفزيون، حتى قيل إنه هو الذى يستطيع أن يملأ الفراغ الروحى الذى تركه غياب الشيخ الشعراوى.

ومع الشعبية الواسعة للدكتور زغلول النجار ظهرت - كالعادة - حملات من الهجوم عليه.

قال الأستاذ أحمد فراج: إنه ظل يبحث عن «خليفة» للشيخ الشعراوى إلى أن وجد زغلول النجار،ووجد فيه متحدثا لديه ما يقوله للناس، ويؤثر فيهم ويحرك فيهم العاطفة الدينية بأسلوب سهل وبحقائق علمية مستقرة.. وقال: إن ما لفت نظره إليه علمه الغزير وأسلوبه الراقى.. وفى هذا الوقت بالذات نحن فى حاجة إلى توظيف التقدم العلمى فى كل ما يخدم ديننا بين المسلمين وغير المسلمين.. والجيل الجديد من الشباب يعيش فى عالم تسود فيه الأفكار المادية والانبهار بالعلم ومنجزاته.. فلماذا لا يكون ربط الشباب بالدين عن طريق حقائق العلم.. والدكتور النجار استطاع إقامة هذا الجسر الذى يربط بين الدين والعلم بما يتناسب مع عقلية العصر..

وقال الدكتور النجار: إنه أراد أن يوظف معلوماته العلمية فى فهم وتفسير القرآن بمنهج يختلف عن مناهج المفسرين التقليديين الذين اعتمدوا على التفسير اللغوى وتحليل تركيب الكلمات والآيات لبيان الإعجاز اللغوى فيها والوصول إلى أن هذه اللغة لا يمكن أن تكون من صنع بشر..أواستخلاص الأحكام والأوامر والنواهى الإلهية كما جاءت فى القرآن.. أو بالاجتهاد فى محاولة البحث عن مراد الله من كل آية بالتفسير الصوفى أو الباطنى.. مناهج كثيرة للتفسير موجودة ومعروفة ولها مكانتها.. فما المانع أن يكون إلى جانبها منهج لفهم وتفسير القرآن فى ضوء الحقائق العلمية الحديثة..؟ واتفاق القرآن مع هذه الحقائق العلمية، وعدم تعارضه مع أى منها، هو فى ذاته دليل يؤكد معنى المعجزة فى هذا الكتاب الكريم، ويعمق إيمان المؤمنين، وقد يهدى غير المؤمنين الذين يقولون: إنهم لايؤمنون إلا بالعلم..

والدكتور النجار ليس دخيلا على العلم والعلماء.. ولا يتحدث عن علوم لايعرفها أوعرفها معرفة سطحية بالسماع أو بالقراءة السطحية.. ولكنه يتحدث عن علوم درسها دراسة متخصصة ومتعمقة.. فهو حاصل على بكالوريوس فى كلية العلوم-جامعة القاهرة، ودكتوراه فى العلوم فى جامعة ويلز البريطانية، وشغل منصب مدير معهد ماركفيلد للدراسات العليا فى بريطانيا حيث يعيش فيها.. فلايستطيع أحد أن يقول له: أنت تتحدث بما لا تعلم.. أو أنت تخطئ أو تغالط فى عرض النظريات العلمية..

الرجل يتحدث فيما يعلم.. ومؤهل للدور الذى يقوم به..

وبعض الدعاة ورجال الدين الذين ينكرون على الدكتور النجار أن يفسر القرآن في ضوء الحقائق العلمية هم أنفسهم يلجئون إلى الاستعانة بالقشور التي يعرفونها عن علم الحيوان أو علم النبات أو علم الفلك ليستدلوا بها على وجود الخالق، ومعرفة الله، وإثبات أن القرآن كتاب الله.

ولكن هناك من الدعاة من يؤيدون منهج الدكتور النجار ويستدلون على أنه الصواب.. يقول الله تعالى في سورة الغاشية الآيات ١٧-٢٠:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾

وهذا أمر من الله بدراسة العلوم.. علم الحيوان.. وعلم الفلك.. وعلم الجيولوجيا.. وكل العلوم.. لأنها جميعا تقود إلى اليقين بوجود الله.. وتؤكد الإيمان على أسس عقلية، إلى جانب الإيمان بالقلب والفطرة..

والقصة ليست جديدة..

والدكتور النجار ليس أول من حاول فهم القرآن في ضوء الحقائق العلمية.. هناك عشرات غيره سبقوه ولكنهم لم ينالوا شهرة مثل شهرته.. لأنهم قدموا اجتهاداتهم في صمت وبعيدا عن الأضواء ولم يصلوا إلى التليفزيون.

أذكر - مثلا - الدكتور محمود سراج الدين عفيفي أستاذ الكيمياء غير العضوية بكلية العلوم بجامعة الأزهر، وله كتاب مهم أصدره منذ ربع قرن تقريبا بعنوان «قوانين الله وليست قوانين الطبيعة» سعى فيه

إلى دمج العلم بالدين وأعلن أنه يريد إسكات من يزعمون أن الدين شئ وحقائق العلم والحياة شئ آخر، أو يحاولون التشكيك فى الإسلام والقرآن، ومأكثرهم ، ممن يفعلون ذلك باسم العقل أو العلم.. واجتهد الدكتور سراج الدين فى إثبات العلاقة بين القرآن ونتائج التقدم العلمى، وإن كان العلم يؤثر فى الحياة فإن الدين هو أصل العلم.

وفى فصل من هذا الكتاب بعنوان « الحديد » يقول الدكتور سراج الدين: إن الآية٢٥من سورة الحديد تقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ والعلم يقول: إن الحديد يمثل أقوى رابطة نووية ممكنة، وإن الاندماج النووى للحديد تتولد عنه أكبر طاقة تعرفها البشرية أكثر بكثير جدا من الطاقة التى تنتج عن التحام الهيدروجين - كما هو معروف - فى الطاقة الشمسية والطاقة الهيدروجينية، وكتب الكيمياء والجيولوجيا تشير إلى ما توصل إليه العلم من أن الأرض كانت فى حالة بلازما فى بداية الخلق، ونزل النيكل والحديد تجاه مركز الأرض، وفى هذا يتأكد صدق قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ أما باطن الأرض فهو عبارة عن حديد، وهذا الحديد هو الذى يحمل كتلة الكرة الأرضية كلها، وصدق الله تعالى حين قال عن الحديد: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ . ومن حقائق العلم أيضا أن اجتماع الحديد والنحاس والهواء ينتج عنه مادة لها التركيب البلورى للاسبينل.. والاسبينل حجر كريم أملس صلب صلابة فائقة، ونوعية هذه الصخور موجودة فى جبال الأورال.

وفى سورة الإسراء يتوقف الدكتور سراج الدين عند الآية رقم ١٢ من سورة الإسراء: ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ ليقول: إن الذين يعملون فى مجال الكمبيوتر يعرفون أن العمليات الرياضية كلها أصلها فى الحساب، وتختزل هذه العمليات فى برمجتها إلى عمليات الحساب، وبعد الحساب كل شىء مفصل تفصيلا، ولذلك أراد الله للناس أن يعلموا عدد السنين ويتعلموا الحساب.

وفى الآية رقم١٢من سورة الطلاق قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

ليقول إن الدراسات الجيوفزيائية أثبتت أن الأرض مكونة من:

١ - الغلاف الهوائى

٢ - الغلاف المائى.

٣ - القشرة الأرضية.

٤ - طبقة من السلكيات الخفيفة والثقيلة (١٢٠٠كيلومتر)

٥ - طبقة من الأكاسي والكبريتيدات (١٧٠٠ كيلومتر)

٦ - طبقة سائلة من الحديد والنيكل والسليكون (٢٢٠ كيلومتر)

٧ - نواة الأرض المكونة من الحديد والنيكل (١٢٠٠كيلومتر).

إذن فقد جاء العلم بعد مئات السنين بما لم تكن البشرية تعلمه يوم نزل القرآن .

ومادة الأرض مكونة من ذرات تحمل كل صفات المادة، وجميع الذرات للعناصر المختلفة صغيرها وكبيرها تكون من مدارات رئيسية هى: k, L, M, N, O, P, Q. وهى أيضا سبعة تنتقل بينها الإلكترونات لتعطى كل الصفات الكيميائية والطبيعية.

والرقم سبعة لا يتوقف عند هذا الحد، فإن جائزة نوبل لعامى ١٩٦٣ و١٩٧٥ منحت (لكل من) هـ. جنسين، وجيوبرت ماير، وأ. بوهر، وبن موتنسون على التوالى لاكتشافاتهم المتعلقة بالتركيب المدارى لنواة الذرة، وتوصلوا إلى أن أعداد البروتونات والنيوترونات التى تكون مدارات مستقرة عددها سبعة يسميها العلماء الأعداد السحرية.

والمجرة التى فيها الأرض بها حوالى ١٠٠ ألف مليون نجم هى بالنسبة لنا بداية الكون، وهناك مجموعات أخرى لا حصر لها من المجرات تتحرك بسرعات فائقة بعيدة عنا.. هذا هو ما يعلو أرضنا وهو السماء والنار، خارج السموات والأرض جسيمات المادة فى حركة عشوائية ذات طاقة عالية(شواظ) وتصبح أشعة كونية، ومن المستحيل وجود المادة فى مجال به شواظ من نار ونحاس، لأن جسم البروتون المضاد ينجذب إلى المادة ويندفع إليها بقوة التجاذب الكهربى ويبيدها، وبذلك يمثل هذا المجال ستارا كثيفا يستحيل معه نفاذ المادة إليه، وإذا حدث فإن إبادة المادة يتم فى الحال.. وفى ضوء هذه الحقائق العلمية يمكن أن نفهم الآيات (الرحمن : ٣٣- ٣٥) :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾

(الجن ٨ و٩)

في دراسات الدكتور محمود سراج الدين عفيفي وقفة عند الآية ٦١ من سورة يونس: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ ليقول إن الذرة هي اصغر شئ، وكان السائد أن الذرة لاتنفسم ولا تتجزأ، وقد منحت جائزة نوبل عام ٦٩ للباحث جيل مان وعام ٧٦ للباحث تنبيح عن أبحاثهما التي أثبتت أن الجسيمات الأولية التي تتركب منها الذرة مثل البروتونات والميزونات وغيرها، تتركب هي أيضا مما يسمى كوارك Quark وهو أساس المادة، ويمكن التعرف عليه نظريا أو عمليا بمنظار بسرعات تقارب سرعة الضوء، وبذلك أثبت العلم أن هناك أصغر من الذرة وأصغر من مكونات الذرة، أما ما هو أكبر من الذرة فقد كان معروفا ويسهل الإشارة إليه، ولكن لم يكن أحد يصدق أن هناك ما هو أصغر من الذرة، وقال المفسرون التقليديون إن ذلك إشارة إلى أن الله يعلم كل شيء مهما يكن صغيرا، إلى أن جاءت الأبحاث العلمية منذ سنوات قليلة لتقدم الإثبات على أن هناك فعلا ما هو أصغر من الذرة وأن كل كلمة في القرآن وراءها أسرار لايصل إليها البشر بسهولة.. كذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ (الزلزلة: ٨) لم يدرك المفسرون أن مثقال ذرة معناها أن الذرة تعنى أن الذرة لها وزن وهذا شيء لم يعرفه العلماء حتى كشف العلم الحديث أن وحدة المادة ووحدة الطاقة لها وزن، وحصل العالم دى بروجلتيه على جائزة نوبل عام ١٩٢٩ على هذا الاكتشاف.

❑ ❑ ❑

كيف بدأ الخلق ؟..

بمناهج مختلفة توصل العلماء إلى أن عمر الكون يزيد قليلا على سبعة آلاف مليون نسمة، وقبله لم تكن للمادة وجود، وحسب النظرية النسبية لم يكن هناك زمن، وبالتالى يقف علم البشر عندما ينعدم الزمن، وبذلك يكون الغيب حقيقة علمية، والخلية الأولى التى أنشأها الله فى الأرض لم تكن بها مواد عضوية أو حيوية، لاستحالة ذلك فى درجات الحرارة الكبرى التى كانت عليها الأرض وهى الحالة الغازية، وأدق وصف لها فى هذه الحالة أنها دخان، وصدق الله العظيم ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (فصلت: ١١).

وحقائق العلم توصلت إلى أن الماء هو أساس كل العمليات الحيوية وصدق الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وثبت أن العناصر توجد على هيئة كربونات وهاليدات وكبريتات وسليكات وأكاسيد، وهذه يغلب عليها اللون الأبيض.. وتوجد مختلطة

بأكاسيد الحديد فيغلب عليها اللون الأحمر، وعلى هيئة كبريتيدات أوعلى صورة غير متحدة كالمعادن ويغلب عليها اللون الداكن، ولايخرج الأمر كله عن ذلك، وهذا ما توحى به الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فاطر (٢٧)

ويقول الدكتور محمودسراج الدين عفيفى إن فى القرآن آية يمكن أن نجد فيها مايشير إلى الحمل خارج الرحم وكأنها تشير إلى طفل الأنابيب فى قوله تعالى: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(الواقعة: ٦١)

ويقول: إن الآيات تشير إلى أن الأرض كروية مثل قوله تعالى فى سورة الرحمن آية١٧﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ لأن الجسم المسطح له مشرق واحد ومغرب واحد، ولابد أن تكون الأرض كروية لكى يكون لها مشرقان ومغربان ولها مشارق ومغارب..

ويصل الدكتور سراج الدين فى نهاية أبحاثه إلى حقيقة أن ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾(البقرة:٢) ويدعو إلى أن نفهم ما تنطوى عليه دعوة الله للناس لكى يتدبروا القرآن: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢)

هذا مثال من الجهود التى قام بها علماء درسوا نظريات وقوانين العلوم الحديثة، وتأملوا ما فى كلمات الله من معان موحية ووجدوا أن ما جاء به العلم لا يتعارض مع ما جاء فى القرآن، وأن كثيرا من

الحقائق العلمية يشير إليها القرآن بالتصريح أو بالتلميح، وفى هذا تأكيد على أن أسرار الإعجاز فى القرآن لم يستطع الأولون والآخرون أن يصلوا إلى نهايتها وأن باب الاجتهاد فيها سيظل مفتوحا إلى ما شاء الله.

نذكر أيضا الدراسات التى نشرها أستاذ علم الفلك الراحل الدكتور جمال الفندى وشرح فيها معجزات الخالق فى السموات والأرض والجبال والبحار.. ونذكر البرنامج التلفزيونى الشهير «العلم والإيمان» الذى اشتهر به الدكتور مصطفى محمود ويعرض فيه النتائج الحديثة فى علوم الحيوان والنبات والكيمياء والطبيعة وغيرها ويربطها بآيات فى القرآن تشير إليها.

ومن بين الاجتهادات أيضا كتابات عبد الرازق نوفل وأهمها كتابه «الله والعلم الحديث» وفيها يشرح قوانين ونظريات علمية هى فى ذاتها أدلة على وجود الله. وأدلة على عدم تعارض القرآن مع كل ما يصل إليه العلم.. وهذا الجهد العلمى يثبت إيمان المؤمنين وقد يفتح قلوبا عليها أقفالها.

والدكتور النجار لايقدم لنا نتائج أبحاثه، أو اختراعاته، أو يطرح نظريات من عنده، ولكنه يقدم الحقائق المعروفة والمستقرة فى العلوم، والتى يعرفها المتخصصون فى هذه العلوم، ولايعرفها عامة الناس، وهذا هو الشئ الجديد الذى يجذب المشاهدين لما يقوله فى التليفزيون، وما يكتبه فى الصحف، لأنه يلبى احتياجهم إلى معرفة ما وصل إليه العلم الحديث فى الفروع البعيدة عنا وبأسلوب سهل يمكن أن

يستوعبه متوسط الثقافة، وبذلك فإن ما يفعله أقرب إلى نشر الثقافة العلمية، أو تبسيط للعلوم الحديثة، والاجتهاد الذى يقدمه هو محاولته لإثبات أن هذه النتائج والحقائق العلمية سبق أن أشار إليها القرآن، ليصل إلى نتيجة واحدة: إن هذا الكتاب الكريم معجزة تفوق قدرة العقل البشرى ولا يمكن إلا أن يكون من عند الله، خالق كل شئ، الذى أحاط بكل شئ علما، ويستوى عنده الماضى والحاضر والمستقبل، والمعلوم والمجهول.

ولا أعرف لماذا يهاجمون الدكتور النجار مع أن هناك قنوات تليفزيون وإذاعات عديدة مخصصة طول الوقت لشرح الكتاب المقدس وتثبيت إيمان المؤمنين به، وإقناع غيرهم به، والتبشير بما فيه، وهذه القنوات تقدم هذه الموضوعات ليل نهار دون أن تجد اعتراضا، بل إنها تجد التشجيع، وكما أن لكرة القدم ورقص الباليه مشجعين ومحبين، فإن هناك أيضا محبين للموضوعات والأحاديث الدينية.. وإذا قيل: إن الدكتور النجار يريد أن يكون خليفة للشيخ الشعراوى، فما المانع فى أن يحاول ذلك، وقد ترك الشيخ الشعراوى فى نفوس الناس فراغا كبيرا، وكان يجمع الأسر المؤمنة على اختلاف مستوياتهم الثقافية كل يوم جمعة أمام التليفزيون، ويخاطب مشاعرهم، ويثير اهتمامهم بقضايا تربط بين شئون دينهم وشئون دنياهم، وما زالت تسجيلات وكتب الشيخ الشعراوى هى الأكثر مبيعا والأكثر إقبالا من الجمهور حتى الآن. فإذا كان لدى الناس احتياج وتعطش لداعية يخاطب عقولهم ويقنعهم بالدليل بما فى القرآن من معجزات فما هو الخطأ فى ذلك..؟ وما الخطأ فى أن يسعى إلى تلبية هذا الاحتياج من يقدر عليه..؟

المهم أن المنهج الذى يفسر به الدكتور زغلول النجار القرآن ليس جديدا.. وليس هو أول من دعا إليه.. فلماذا نهاجم الرجل ولانتحدث عمن سبقوه..؟ هل لأن التليفزيون يعطى شهرة وذيوعا ولم يكن ذلك متاحا للسابقين؟.. أو لأن النجاح السريع الذى حققه الدكتور النجار والانتشار الواسع فى مصر والدول العربية حرك حزب أعداء النجاح؟!!.. أو لأن المفسرين التقليديين يخشون أن يفقدوا احتكارهم لعلم التفسير ليتولى التفسير معهم المتخصصون فى العلوم المختلفة؟.. أو لأن هناك دائما من يهاجم لمجرد إثبات الذات وليكون له مكان فى الساحة؟..

وبعيدا عن الهجوم والدفاع . . وبعيدا عن الحب والكراهية.. يحتاج الموضوع إلى بحث هادئ.. ومخلص وبدون تسرع.. قبل أن نقول كلمتنا.. فلنستكمل البحث قبل أن نضع الدكتور النجار فى قفص الاتهام، وقبل أن نجعل من أنفسنا سلطة اتهام أو سلطة محاكمة أو نقف موقف الدفاع.. نفهم أولاً.. ثم نحدد موقفنا .. هذه هى القضية؟..

هل نحاكم العقاد أيضًا ؟

الذين يهاجمون الدكتور زغلول النجار يوجهون إليه عدة اتهامات: أولها أنه سوف يصبح نجما من نجوم الدعوة الإسلامية، وسوف يكون له جمهور كبير، وإن كانت هذه تهمة. فإن من حق الدكتور النجار أن يكون أسعد الناس بها، ومن حقنا أيضا أن نسعد بها.. لأن ظهور داعية معتدل يخاطب العقل ويربط بين الدين والعلم علامة صحة وتطور فى المجتمع.

قائمة الاتهامات تشمل أيضًا أن الدكتور زغلول النجار يروج مخدرات علمية! وفيها أيضا على النقيض من ذلك اتهام بأنه يستخدم فى الإقناع بمعجزة القرآن منهجا يناسب الدعوة إلى الإسلام فى أوربا وأمريكا، حيث يعرف الناس قيمة العلم ويبحثون عن الأدلة العلمية ويفهمون حقائق العلم، ولكن هذا المنهج لا يناسب عقلية المسلمين لأنها بعيدة عن العلم وعن الحقائق العلمية، ولا أعرف إن كانت هذه تهمة موجهة للدكتور زغلول النجار أو هى تهمة موجهة لنا ولعقولنا وقدرتنا على فهم واستيعاب النظريات العلمية؟.

وتشمل قائمة الاتهامات الموجهة للدكتور زغلول النجار أنه يفسر القرآن فى ضوء القوانين والحقائق العلمية، وإن كان ذلك يؤدى إلى إقناع أهل العلم والمتخصصين فيه فإنه لايؤدى إلى إقناع عامة الناس الذين ليست لديهم خلفية علمية، ومع التسليم بصحة هذا الاتهام

فما الخطأ فى أن يكون هناك داعية يخاطب من لديهم مقدرة واستعداد لمتابعة وفهم الحقائق العلمية، دون مصادرة لحق سائر الدعاة الآخرين فى الحديث إلى عامة الناس بما يناسبهم ؟.

وبعض الذين يهاجمون الدعاة هم أنفسهم الذين يدافعون عن الخارجين على الإجماع فى فهم الدين، والمنكرون لبعض أصول الدين، يعتبرون أنفسهم بذلك المدافعين عن حرية الفكر والرأى، وكأن حرية الرأى مباحة للخارجين والمنكرين، ومحرمة على المؤمنين، والاجتهاد مسموح به للعابثين فى أصول الدين، وممنوع على من يريدون تثبيت العقيدة والإيمان فى عقول وقلوب المؤمنين.

ويقولون فى عريضة الاتهام: إن القرآن ليس بحاجة إلى العلم لإثبات أنه معجزة وأنه من عند الله، وإن الدكتور زغلول النجار يجهد نفسه ويجهد الناس لإثبات ما هو ثابت ولا يحتاج إلى إثبات.. وإن كان هذا الكلام فى ظاهره جميلا، ولكنه - فى حقيقته - غير صحيح.. لأن هناك دائما فى كل زمان وفى كل مكان، منذ نزول القرآن وحتى قيام الساعة، من ينكرون الأديان عموما، ومن ينكرون أن الإسلام دين سماوى من عند الله، وأن القرآن كتاب الله.. وإن كان البعض لايعلمون ذلك فعليهم أن يلتمسوا معرفة ذلك فى آلاف الكتب والمراجع للمستشرقين والماديين والملحدين، فى الماضى والحاضر، وليس هناك ما يمنع من وجودهم فى المستقبل، ولهذا فإن الهجوم على الإسلام والقرآن من أعدائه يستلزم كتيبة للقيام بالهجوم المضاد والدفاع مزودة بكل الأسلحة.. وبالمنطق والأدلة العقلية.. بالقرآن ذاته

وما فيه من أدلة التصديق والإثبات.. وبحقائق العلم الحديث التى نجد لها إشارات فى القرآن لتأكيد أنه لا يمكن لبشر أن يكون على دراية بها منذ ١٤٠٠ سنة، فضلا عن أن يكون أميا لايقرأ ولا يكتب.

يقولون: إنه لا يجوز تفسير القرآن، إلا بنتائج العلوم التى تأكدت صحتها، أما النظريات والاجتهادات فقد يصل العلم إلى عكسها، وقد يتأكد من عدم صحتها، فإذا ربطنا القرآن بها جعلناه عرضة للشك بعد ذلك، وهذا صحيح فعلا.. لأن النظريات العلمية متغيرة، وقد يثبت غدا خطأ ما اعتقدنا صحته اليوم، ولذلك نجد أصحاب منهج التفسير العلمى للقرآن على وعى بهذه المحاذير، ولايتحدثون إلا عن القوانين والاكتشافات العلمية التى ثبتت صحتها.. وأصبحت مستقرة فى العلوم، ولا يتحدثون عن الافتراضات أو النظريات العلمية التى ما زالت موضع اختبار..

يقول بعض المعارضين: إنهم يخشون من اندفاع زغلول النجار فى السير فى هذا الطريق إلى حد إخراج بعض الآيات من معناها المستقر لدى المفسرين لكى يجعلها تتفق مع النظريات العلمية التى يريد ربطها بها.. وهذا أيضا ممكن.. ولكنه هو ومن سبقه لم يفعلوا شيئًا من ذلك.. ولا نستطيع أن نحاكمه على خطأ لم يرتكبه.. كما لا نستطيع أن نمنعه لمجرد الظن أو احتمال أنه قد يخطئ..

❑ ❑ ❑

ويطرحون سؤالا صحيحا ولكنهم يصلون إلى إجابة غير صحيحة..

السؤال هو: هل معنى منهج التفسير العلمى للقرآن أن القرآن جاء ليعلمنا علوم الفلك والفضاء والجيولوجيا؟.. وبمعنى آخر.. هل القرآن كتاب علوم.. هل هو كتاب كيمياء وطبيعة وجغرافيا.. الخ. أو هو كتاب نزل لهداية البشر.. هدايتهم إلى الله أولا.. وإلى العبادات والمعاملات التى يرضى عنها الله ثانيا؟.. ويصلون إلى إجابة ملخصها: إذا لم يكن القرآن قد نزل ليعلمنا علوم الفضاء والجيولوجيا وغيرها فلا يجوز إقحام هذه العلوم فى تفسير وفهم القرآن.

وفى هذه الأقوال التباس واضح.. فالقرآن ليس كتاب علوم.. نعم.. ولكن هناك الماديون.. والملحدون.. والكفار.. والمنكرون للإسلام والقرآن. بل والمنكرون لوجود الله.. ومنهم من يقول إنه يؤمن بالعلم ولا يؤمن بالغيبيات.. فكيف نخاطب هؤلاء؟.. هل نتركهم فى ضلالهم.. أو نجتهد فى إقناعهم بما يمكن أن يقنعهم؟.. فإذا قالوا إنهم يؤمنون بالعلم فما المانع من أن يتصدى لهم فريق من العلماء المؤمنين ليتحدثوا معهم باللغة التى يفهمونها؟.. ثم ما المانع من أن يقدموا نتائج تأملاتهم فى القرآن لعامة الناس لتثبيت إيمانهم؟.. ويزيدهم إيمانا على إيمانهم؟.. ما المانع . . . ؟

❑ ❑ ❑

لماذا طلب منا الله أن نتأمل فى أنفسنا وفى الكون؟.. أليست هذه دعوة.. بل أمر إلهى لمعرفة قوانين الطبيعة وحقائق العلوم.. لماذا؟.. لأنها فى النهاية لابد أن تقود إلى الإيمان بالله.. وهذا ما قاله الله تعالى فى كتابه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾(فاطر: ٢٨).

وإذا كان الأمر الإلهى بـأن ننظـر فـى ملكـوت السـموات والأرض.. وفى الآفاق، وفى أنفسنا.. هـل ينظـر كـل واحـد منـا بنفسـه وبـالعين المجردة؟..هل الدعـوة موجهـة فقـط للجـهلاء وغـير القـادرين أو غـير المؤهلين للوصول إلى الحقـائق غـير الظـاهرة فـى السـموات والأرض؟.. أو أن الدعوة موجهـة أسـاسـا للعلمـاء القـادرين علـى التوصـل إلى هـذه الحقائق؟.. وإذا وصلوا إلى معرفة أشياء مـن هـذه العلـوم مـاذا يفعلـون بـها؟.. هـل يحتفظـون بـها لأنفسـهم أم يقولـون لنـا مـاذا رأوا ومـاذا وجدوا؟.. لماذا؟.. لكى نلمس بيقين قدرة الله فى خلقه، ونفـهم بعـض أسرار هذا النظام الدقيق الذى يسرى فى الكون وندرك كيف يسـتحيل أن يكون عشوائيا أو تلقائيا..

هل يستطيع المتخصصون فى علوم التفسير والعلوم اللغوية أن يقوموا بهذا الدور؟.. وإن فعلوا أليس الأفضل أن يقوم بـه علمـاء درسـوا هـذه العلوم وتخصصوا فيها..؟..

❑❑❑

وإن كان لابد من توجيه الاتهام للدكتور زغلول النجار وعشرات من العلماء بأنهم يروجون «مخدرات علميـة» فلمـاذا نحاكمـه وحـده وقـد سبقه كثيرون اتبعوا نفس المنهج، ومنهم العقاد؟!

العقاد فى كتابه الشهير «التفكير فريضـة إسـلامية» خصـص فصـلا عن «العلم» قال فيه: إن العلم الذى أمر به القـرآن هـو جملـة المعـارف التـى يدركـها الإنسـان بالنظر فـى ملكـوت السـموات والأرض ومـا

خلق الله من شيء.. ويشمل الخلق كل موجود في هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٥) و﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾سورة الغاشية١٧-٢٠ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة ١٦٤.

ويستخلص العقاد من ذلك أن العلم في الإسلام يتناول كل موجود، فهو أعم من العلم الخاص بأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، وخير عبادة لله أن يهتدى الإنسان إلى سر الله في خلقه، وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله، ولهذا قال الرسول ﷺ في فضل هذه العبادة: «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».. و«العلماء ورثة الأنبياء».. وقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».. هذا غير الأحاديث النبوية الكثيرة الأخرى التي وردت في فضل المعرفة، وفريضة العلم على كل مسلم ومسلمة.

يقول العقاد إنه مرت بالأمم الإسلامية عصور متخلفة جهلت فيها الإسلام نفسه، فجهلت فضل العلم كما جهلت فضل الدين، وفي نفس

الوقت يحذر العلماء من التسرع في البحث في القرآن عن تصديق لنظريات علمية لم تتأكد صحتها، أو هي عرضة للتغير، مثل محاولة بعض القدماء تفسير قوله تعالى في سورة يوسف آية ٤: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ .. بذكر أسماء هذه النجوم ثم ظهر بعد ذلك أن هناك غيرها، مما دعا المفسرين إلى القول بأنه لامانع من ذكر اسماء النجوم على سبيل الرواية وليس على سبيل الجزم بأن هذا حكم القرآن في مسألة من المسائل، وبخاصة ما كان منها عرضة للمراجعة والمناقشة وتعدد الآراء.

إذن فمن الممكن الاستشهاد بما توصل إليه العلم وسبقه القرآن، على أن يكون ذلك على سبيل الرواية وليس على سبيل الجزم.

ويستدل العقاد بمثال آخر في تأويل العلماء آية الدخان بالنظرية السديمية في سورة فصلت: ١١-١٢: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾

والنظرية السديمية قال بها «سويد ينبرج» و«لابلاس» خلاصتها أن المنظومة الشمسية نشأت من السديم، أي من مادة غازية ملتهبة، بردت وتجمدت وأفلتت من جرمها الكبير.. كذلك نشأت النجوم في السماء مماثلة لهذه النشأة.. وهذه النظرية شائعة، وليست قاطعة.. وتتصل بها مجموعة من الفروض يمكن أن تتغير حسب الكشوف والمشاهدات مع الزمن.. وينتهي العقاد إلى أنه في مثل هذه النظرية لاحرج من أن يقول بها قائل في سبيل البحث عن الحقيقة وليس

على أنها من دعائم الإيمان بآيات القرآن.. ومثلها تأويل الآية.. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ الآية ٨٦ في سورة الكهف من قصة ذى القرنين.. قال البعض إن هذه إشارة إلى منطقة أحواض أنهار فى سيبريا تصبح فى الصيف مياه موحلة، وفى الشتاء تتحول إلى سهل واسع من الجليد.. ويقولون فى تفسير الآية إن ذا القرنين كان فى سيبريا..

ويفسرون الآية ٩٠ فى سورة الكهف:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴾ أى أنه وصل إلى مكان تشرق فيه الشمس وليس فيها ليل، ويقولون إن ذلك تأكيد لأنه كان فى نصف الكرة الشمالى لأن النهار يطول كلما اقتربنا من القطب الشمالى، حتى إن النهار يصل إلى شهر كامل ٢٣° ٦٧° ويصل إلى شهرين فى عرض ٥١° ٦٩° ويصل إلى ثلاثة أشهر فى عرض ٤٠° ٧٣° ويصل إلى ستة أشهر فى القطب.. هذا الاجتهاد قال به الأستاذ محمد أمين الديك يشير إليه العقاد ويقول: إنه اجتهاد حسن فى التفسير لا مانع من نظره دون الجزم باليقين.. وكذلك محاولات معرفة من هو ذو القرنين: هل هو من ملوك اليمن، أو من ملوك العراق الأقدمين؟ وهناك فروض كثيرة لا يجوز القطع فيها وإلزام المسلمين بأن يتقبلوها كما يتقبلون حقائق التنزيل.

ينتهى العقاد إلى أنه لا حرج من الاستعانة بالحقائق العلمية فى محاولة فهم إعجاز القرآن، دون الجزم باليقين، حتى إذا ظهرت حقائق جديدة كان ذلك من خطأ المفسرين وليس من خطأ القرآن.

لا يغلق العقاد الباب أمام التفسير العلمى للقرآن.. وفى نفس الوقت لا يفوته التحذير من أن التفرقة واجبة بين القوانين العلمية الثابتة التى لم تتغير منذ سنوات واستقرت، وبين الفروض والنظريات العلمية التى مازلت موضع بحث ومراجعة واختبار.

ولم يخرج الدكتور زغلول النجار وزملاؤه عن هذا الإطار، فهم على وعى بالمحاذير التى يمكن أن يقع فيها المفسرون، وبما قاله الأولون من أن الاجتهاد فى تفسير القرآن، يجب أن يكون محصورا فى محاولة فهم دلالة الألفاظ والأسلوب، وفى استنباط الأحكام الشرعية، وأن المنهج العلمى فى تفسير الإشارات الكونية يعتمد على مدى ما وصلت إليه المعرفة البشرية فى كل عصر.. كما أنهم يعلمون أسباب رفض التفسير العلمى من غالبية المجتهدين فى التفسير لأن الإسرائيليات تسللت من خلال هذه التفسيرات العلمية، ولأن الإشارات الكونية فى القرآن جاءت بصيغة مجملة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى، وتتسع هذه المعانى باستمرار فى تكامل وليس فى تضاد، وهناك دائما من يرى أن القرآن كتاب عقيدة وعبادة، وأخلاق، ومعاملات فقط، أى أنه كتاب دين وليس كتابا فى العلوم، والإشارات العلمية التى وردت فيه لم ترد لتعليم المسلمين حقائق وقوانين علمية، ولكنها جاءت فى مقام الإرشاد والموعظة والتدليل على قدرة الله، وتوجيه الإنسان إلى التفكير والنظر فى خلق الله.

وكل من يتبع منهج التفسير العلمى للقرآن يؤمن بأن القرآن ثابت لايتغير، بينما نتائج العلوم تتغير دائما وتخضع للتطور، وما تسمى «حقائق العلم» ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان

سائدا بالأمس، وهناك من يرى أنه لايجوز تأويل الثابت بالمتغير، والقرآن من الله، والعلوم من البشر، وهناك من يرى أنه لايجوز الاستناد إلى دليل من صنع البشر لإثبات كلام الله، والقرآن حجة على البشر وعلى العلم وأهله.. والعلوم تبدأ من منطلقات مادية وليس من منطلقات الإيمان، وبعض المفسرين بالعلوم تكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحتمله..

كل ذلك قاله أصحاب منهج التفسير العلمي للقرآن وهم على وعى بما قيل وما يمكن أن يقال في الطعن على هذا المنهج. ومعظم الذين يهاجمونه اليوم يأخذون من كلامهم الذى تناول على سبيل الحصر كل أقوال المعارضين لمنهج التفسير العلمي، ومن ذلك :

أولا : أن العلوم تقدمت ولم تعد للإسرائيليات قيمة، وأصبح العلم قادرا على الوصول إلى صور الإعجاز التى لم يصل إليها السابقون.

ثانيا: أنه لا تعارض بين كون القرآن كتاب هداية وعبادة وبين احتوائه على إشارات علمية وردت في مقام الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته..

وأن القول بأنه لا يجوز تفسير الثابت بالمتغير فمعناه الجمود في الفهم ورفض الاستفادة بما يحققه الإنسان من تقدم في العلم والمعرفة، وأما القول بأن العلم متغير وما يثبت اليوم قد يبطل غدا، فهو يجهل الفرق بين الفروض العلمية والنظريات العلمية، وبين القواعد والقوانين العلمية، فالفروض تفسيرات أولية للظواهر، والنظريات صياغة عامة لتفسير أسباب وكيفية حدوث هذه الظواهر، أما الحقائق العلمية فهى التى تثبت ثبوتا قاطعا، والقوانين العلمية هى ما تأكدت صحته في

إدراك العلاقات بين عناصر الظاهرة الواحدة أو بين عدد من الظواهر الكونية.

ويستشهدون بالآيات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٠)

الآية فيها توجيه صريح بأن نرى بأنفسنا كيف بدأ الله الخلق ويعيده، ودعوة لأن نسير فى الأرض لكى ننظر كيف بدأ الخلق..

وهذا ما يفعله أصحاب المنهج العلمى فى التفسير اليوم، وهذا ما فعله العقاد أيضًا.. وما فعله كذلك كثير من العلماء والباحثين فى العلوم..

فلماذا يحاول البعض منع أحد العلماء من أن يخاطب المؤمنين بلغة العلم، وهى لغة العصر، ويريدون أن تخلو الساحة لأهل البلاغة والفقه وحدهم؟ ولماذا نغلق على أنفسنا بابا من أبواب المعرفة يزيد المؤمنين إيمانًا، وقد تكون فيها الهداية لغير المؤمنين ممن لاتؤثر فيهم لغة القلوب، وتؤثر فيهم لغة العلم وحدها؟..

لماذا يريد البعض إغلاق باب من أبواب المعرفة ؟ . .

العلم هو المدخل للإيمان

الذين يهاجمون الدكتور زغلول النجار لديهم دوافع ظاهرة ودوافع خفية لهذا الهجوم. فهم لا يريدون أن تكون لرجل يتحدث فى الإسلام شعبية بين الجماهير، أو يكون له تأثير على الرأى العام.. وهم لا يريدون أن يكون «العلم» هو المدخل لإدراك معجزة القرآن، ويريدون الاكتفاء بأن يكون فهم الناس لإعجاز القرآن مقصورًا على الناحية البلاغية، وبعضهم يفضل ترك أمور التفسير للجماعات من المتطرفين أو لجماعات من مروجى الإسرائيليات..!

ولكن مشكلة هؤلاء المهاجمين أن الناس لا تصدقهم.. لأن المسلمين يؤمنون بأن القرآن هو كتابهم الأساسى، وعليه تتوقف حياتهم فى الدنيا والآخرة، وهذا الحرص الشديد هو الذى حفظ القرآن أكثر من أربعة عشر قرنا من كل أعدائه والمتربصين به، ولم يجد أى كتاب فى التاريخ مثل هذا الاهتمام الذى حظى به القرآن وجعل أجيالا من المفكرين والعلماء منذ نزول القرآن حتى اليوم يتخصصون فى علوم القرآن، ويتوقفون أمام كل لفظ من ألفاظه، وكل حرف من حروفه.

وكلما توصلت الاكتشافات العلمية إلى حقائق جديدة يجتهد بعض العلماء المتعلقين بالقرآن فى البحث عن إشارات فيه لهذه الحقائق فى محاولة لمعرفة بعض أسرار آياته، فى مواجهة حملات الإلحاد والعداء للإسلام والقرآن.. لتثبيت إيمان المؤمنين بما يتفق مع طبيعة هذا

العصر المفتون بما توصل إليه العلم من تقدم مذهل، وللرد على من ينكرون أن القرآن كلام الله، وهؤلاء موجودون فى كل زمان ومكان لحكمة يعلمها الله.

❑ ❑ ❑

ومنذ ٢٨ عاما ظهر عالم آخر هو الدكتور محمد أحمد الغمراوى وتفرغ لتأليف كتاب عن «الإسلام فى عصر العلم» خصص جانبا منه عن الإعجاز العلمى للقرآن، وكتب مقدمة هذا الكتاب الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر فى ذلك الوقت، فأشار إلى أن غاية الدكتور الغمراوى هى الرد على الذين يتهمون الإسلام بمعاداة العلم أحيانا، ومنافاة العقل أحيانا، وهو الدين الذى احتضن العلم، واحتكم إلى العقل وفى القرآن والسنة الدليل على ذلك.

وكان الدكتور الغمراوى- مثل كل من سار على منهجه- ينبه إلى عدم تفسير القرآن إلا بالقوانين والحقائق العلمية الثابتة وليس بالفروض أو النظريات العلمية التى ما زالت موضع فحص ومراجعة، وعلى سبيل المثال فى سورة الفاتحة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ لم يفهم العرب وقتها إلا أن هناك عالمًا واحدًا نعيش فيه وقالوا: إن العوالم الأخرى هى عالم الجن والملائكة.. الخ وقالوا: هى عالم الحيوان والنبات والجماد، ولكن علم الفلك الحديث كشف أن المجموعة الشمسية التى نحن فيها ليست هى العالم الوحيد، ولكن هناك عوالم ومجرات أخرى كثيرة، ولا يمكن فهم بعض الآيات إلا بالرجوع إلى آخر الاكتشافات العلمية مثل الآيات من ٩ إلى ١٢ من سورة فصّلت:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ

لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا
وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ
وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ كيف نفهم هذه الآيات بعقلية هذا العصر إذا لم نضع أمامنا ما توصل إليه علم الفلك عن تكوين الأرض، ونفهم كيف أن السماء كانت دخانا، ومازالت كتلة هائلة مما سماها القرآن دخانا يشاهدها الفلكيون بأجهزتهم القوية اليوم فى السماء، وكيف نفهم من سورة الطلاق الآية (١٢): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ وكيف نفهم من سورة الأنبياء الآية (٣٠) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ إذا لم نرجع إلى العلم الذى توصل إلى أن الكون كان شيئا واحدا قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم وكيف نفهم من سورة يس الآية ٣٨ : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ إذا لم نعرف ما توصل إليه العلماء من حركة الشمس بسرعة مخصوصة، وكيف نفهم قوله تعالى فى سورة النازعات (٣٠): ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ إذا لم نرجع إلى الحقيقة العلمية

التى توصل إليها العلم الحديث عن شكل الأرض وكما رآها رواد الفضاء بعيونهم، وصوروها بكاميرات دقيقة وأصبحت صورة الكرة الأرضية فى أيدينا، وكيف نفهم الآية (٨٨) من سورة النمل:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ فالسحاب يمر محمولا على الرياح، والجبال تمر محمولة على الأرض التى تتحرك، ولم يكن أحد من البشر يوم نزل القرآن يتصور أن الأرض تتحرك.!

ثم ألا يتوقف الإنسان عند آية مثل: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ فى سورة القيامة (٣ و ٤) ولم يفهم المفسرون قوله «نسوى بنانه» إلا بعد اكتشاف أن كل إنسان له بصمة خاصة ومتميزة تدل عليه ولا يمكن أن يشترك معه فيها أى إنسان آخر وهذه معجزة.. أن يكون لكل إنسان بصمة إبهام لاتشبه بصمة غيره من ملايين الملايين من البشر الذين خلقهم ويخلقهم الله..

وهكذا.. نجد فى القرآن آيات كثيرة تشير إلى ظواهر فلكية أو جغرافية أو طبيعية يحتاج تفسيرها إلى الرجوع إلى الحقائق الثابتة فى العلوم الحديثة.. نحن إذن نرجع إلى العلوم لكى نفهم القرآن وندرك أسرار الإعجاز فيه.. ولا نرجع إلى القرآن لاكتشاف القوانين والحقائق العلمية...

❑ ❑ ❑

ومن أشهر الاجتهادات فى هذا المجال كتاب عبد الرازق نوفل «الله والعلم الحديث» - والذى صدر منذ أربعين عاما وكتب مقدمته الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر فى ذلك الوقت وقال فى المقدمة إن الكتاب يؤكد أن العلم والدين لا يختلفان، وأن العلم يخدم الدين ويؤيده، ولا يعارضه، والإسلام منذ ظهوره له أعداء فى كل عصر، وقد وجد الإسلام من يدافع عنه بإثبات صدق ما جاء به القرآن فى آياته الكونية وإشاراته العلمية التى لم يكن للرسول ولا للناس فى عصره علم بها، والرسول ﷺ نشأ أميا وكثير من الحقائق الكونية والعلمية لم يكن العلم قد وصل إليها فكان ذلك وحده آية أن القرآن من عند الله، وأنه ليس من كلام بشر، بعد أن ظهر أن ما اكتشفه العلماء بعد مئات السنين متفق مع آيات الكتاب.

وقال عبد الرازق نوفل فى تقديم كتابه: إن فى كل جيل وكل حضارة يتخذ الإيمان بوجود الله الصورة التى تتفق مع درجة التقدم التى وصل إليها البشر.. ومن إيمان الفراعنة إلى الإيمان فى عصرنا مرت البشرية بمراحل من التطور والمعرفة.. ونحن الآن فى عصر العلم، ولابد أن نؤسس الإيمان استنادا إلى العلم، وهذا ما وصل إليه كثير من العلماء.. بدأوا ملحدين، ثم اكتشفوا أن هذا العالم بما فيه من قوانين ونظم وكائنات لا يمكن أن يكون قد نشأ عشوائيا أو بالصدفة، ولابد أن هناك قدرة مطلقة هى الله، وعبر عن ذلك آرثر كومبتون الحاصل على جائزة نوبل فى الفيزياء عن اكتشافاته فى الذرة فقال: «فى معملى لا أبحث عن إثبات حقيقة الحياة بعد الموت، ولكنى أصادف كل يوم قوى عاقلة، تجعلنى أحس إزاءها أحيانا بأنه يجب على أن أركع احتراما لها».

ومن تأمل الآيات يكتشف عبد الرازق نوفل أنها تتفق مع نتائج العلم الحديث سواء فى الإشارات التى تتحدث عن الكون والأفلاك، أو عن خلق وتكوين الإنسان الذى يتكون فى أصله من خلية واحدة. ومن هذه الخلية تتكون العظام الصلبة، والغضاريف نصف الصلبة، واللحم الرخو، والأنسجة، والدم، وطبقات الجلد وأهداب العين، ثم يتكون منها السمع والبصر، وينشأ منها الإنسان الطويل والقصير والأبيض والأسود، وهذه الخلية أمكن للعلم أن يكتشف مكوناتها وتركيبها وحركتها وطريقة انقسامها ومراحل تطورها، أما سر الحياة فيها فهو ما وقف العلم والعلماء عنده يعترفون بأن «هنا الله» وصدق الله العظيم: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ ﴾(الطارق: ٥)و﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣).

والذين يربطون بين القرآن وبين العلوم وحقائق الحياة يؤمنون بقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩ ﴾ (النحل: ٨٩).. وهل نلومهم إذا بحثوا- مثلا- هل هناك اختلاف أو تناقض مع قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠).. أو نلومهم إذا حاولوا فهم قوله تعالى: ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ (الرعد: ٤١) ليعرفوا كيف يحدث ذلك النقص، إلى أن يصلوا إلى أن الأرض أخذت فى الانكماش بتوالى برودتها بعد انفصالها عن الشمس، وهذا الانكماش هو الذى سبب التواءات فى القشرة الأرضية، وضغطا على جوف الأرض، ولذلك تخرج منه الحمم والصخور الملتهبة فى شكل غازات..

أوكيف يفهم الإنسان قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (الحجر: ٢٢) إذا لم يتعرف على الحقيقة التى اكتشفها العلم وهى أن الهواء من أهم وسائل تلقيح النباتات بل إن هناك قسمًا كبيرا من النباتات لايتم تلقيحه إلا بالهواء.. أوكيف نفهم الآية: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ (الزمر: ٦) إذا لم نعرف ما وصل إليه العلم من أن الجنين فى بطن أمه يكون محاطا بثلاثة أغشية صماء لاينفذ منها الضوء ولا الماء ولا الحرارة . . أو كيف نفهم قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ (نوح: ١٤) إذا لم نرجع إلى العلم لنعرف هذه الأطوار..

وأحدث كتاب صدر فى هذا المجال بعنوان «الدين علم وليس فلسفة» للدكتور مختار المهدى أستاذ الطب، يقول فيه: إن «الدين» كان ينظر إليه دائما فى إطار «الفلسفة» أو«الميتافيزيقا»، فى عصور لم تكن العلوم قد تقدمت فيها، وكان من المستحيل على المفسرين أن يدركوا ما تعنيه الإشارات العلمية الواردة فى القرآن، أما فى هذا العصر، فقد أصبح ممكنا إدراك جوانب من إعجاز القرآن فى ضوء العلم الحديث.

وفى هذا الكتاب دراسات لتفسير آيات لا يمكن فهمها إلا فى ضوء العلم مثل: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (الأنعام: ١٢٥) وكان المفسرون يفهمون أن الضيق والحرج المقصود هو حالة نفسية، إلى أن ظهرت حقائق فى علم وظائف الأعضاء أن الإنسان

حين يصعد فى الأجواء العليا يتعرض لنقص الأكسوجين فى الهواء وانخفاض الضغط الجوى، وانخفاض درجة الحرارة، ولم تثبت هذه الحقائق إلا فى عام ١٨٠٤ عندما صعد فرانشيسكو وجراتسى فى منطاد إلى ارتفاع ثلاثين ألف قدم فأحس بصعوبة فى التنفس، وآلام فى الصدر، ونزيف من الأنف، ورغبة فى النوم ومن هذه الملاحظات نشأ علم جديد فى الطب هو «طب الطيران».. فما المانع من تفسير مثل هذه الآية فى ضوء الحقائق العلمية لكى يكون ذلك دليلا يضاف إلى غيره من الأدلة على أن القرآن كتاب الله ولايمكن أن يكون غير ذلك..

وعلى سبيل المثال كيف ندرك أسباب تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير إلا فى ضوء ما أثبته العلم من أن الدم هو أكثر البيئات صلاحية لنمو الجراثيم والميكروبات.. والأمعاء الغليظة وهى جزء من الجهاز الهضمى مستودع كبير لفضلات الغذاء وتعج بالملايين من الميكروبات الدقيقة الضارة وتسبب الأمراض إذا وصلت إلى الدم أو الأنسجة السليمة من جسم الحيوان أو الإنسان، وما يتمكن من النفاذ منها إلى الدم يتم التخلص منه عن طريق الجهاز المناعى بالدم والكبد، فتكون اللحوم والدماء السارية داخل أعضاء الجسم بعد ذلك خالية من الجراثيم، أما إذا تعرض الحيوان للموت البطىء نتيجة الاختناق أو الضرب فإن أنسجة جدار الأمعاء تضعف مقاومتها لنفاذ الجراثيم من خلالها إلى الدم وتكاثرها نتيجة الإصابة ولبطء موت الحيوان مما يعطى فرصة لتلوث أعضاء وأنسجة الحيوان بهذه الجراثيم التى تصله عن طريق الدم، وتكون الجراثيم قد تغلغلت داخل الأنسجة

ولا يمكن إزالتها بالغسيل بالماء، وكيف نفهم سر تحريم القرآن في الآية ٣ من سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ ﴾ دون معرفة هذه الحقائق وما أكثرها في كتاب الدكتور المهدى.. هل يكفينا التفسير اللغوى في عصر لايقتنع فيه الناس إلا بما يثبته العلم؟

فما هى المشكلة إذن في أن يسير العلماء على نفس الطريق ويكرروا ما قاله السابقون في الحديث عن الإعجاز العلمى في القرآن ويضيفوا إليه الحقائق العلمية الجديدة ما داموا مؤهلين لذلك وليسوا أدعياء أو دخلاء على العلم والعلماء.. ولا يقول أحدهم ما يتعارض مع الكتاب والسنة..؟

❑ ❑ ❑

المشكلة- كما سبق أن قال الدكتور زكى نجيب محمود- أن يفهم بعض المسلمين أن القرآن فيه كل العلوم، فيكتفوا به، وينصرفوا عن البحث العلمى، والقرآن إذا وردت فيه إشارات إلى حقائق علم من العلوم، فإنما قصد بها ما يتفق مع سياق ورودها، ولا يقصد أن تكون علما بالمعنى الدقيق، والقرآن كلام الله، ولا تبديل لكلمات الله، فهو ثابت وسيظل ثابتا، بينما العلم متغير، وكل يوم تظهر حقائق جديدة، ويتبين خطأ نظريات علمية كان العلماء يحسبونها صحيحة..؟ وهذا التحفظ مشروع، وأكثر الذين يبحثون عن سر الإعجاز العلمى في القرآن يشيرون إلى هذا التحفظ في بداية حديثهم، ويصلون من البحث

إلى أن القرآن يشير إلى حقائق كلية ثابتة، ولا يشير إلى التفاصيل التى تتغير معرفة الإنسان بها.

ويصدق هذا التحفظ على الذين يبالغون فى البحث فى القرآن عن آيات يحملونها بأكثر مما تحتمل لكى يستخرجوا منها نظريات وعلوما.. فنجد من يؤلف كتابا عن «المحاسبة الإسلامية» وآخر يؤلف كتابا عن «علم الإحصاء الإسلامى» وثالث يؤلف كتابا عن «علم الإدارة فى القرآن والسنة».. ومن أمثال هذه الكتب كثير يقوم بتأليفها بعض أساتذة الجامعات كجزء من النفاق العلمى يحسبون أنه ينطلى على المسئولين فى جامعات بعض الدول الإسلامية..

هذا شىء.. وذاك شىء آخر..

ما يفعله زغلول النجار وأمثاله أنهم يشرحون حقائق علمية معروفة.. وأكثرها تجده مجسما بالصوت والصورة والألوان فى متحف التاريخ الطبيعى فى لندن وفى كل المتاحف المماثلة.. ثم يشيرون إلى آيات فى القرآن لا تتعارض مع هذه الحقائق التى لم يكتشفها العقل الإنسانى إلا مؤخرا.. والنتيجة تأكيد اليقين بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند غير الله.. وحين يصل المؤمن إلى هذه الحقيقة يزداد إيمانه قوة وثباتا.. وحين يصل إلى غير المؤمن قد يدفعه ذلك إلى إعادة التفكير.. وقد يكون فيه ما يجعله يهتدى إلى الإيمان..

وإذا كان ذلك يؤذى البعض.. فماذا نفعل لهم..؟

هل التفسير العلمى حرام ؟

هل من حق علماء الفلك والفيزياء والكيمياء الحيوية أن يقرءوا القرآن؟

وإذا قرءوا القرآن ووجدو فيه إشارات إلى حقائق علمية لم يتوصل إليها أحد إلا منذ سنوات وتساءلوا: كيف توصل الرسول ﷺ إلى هذه الإشارات والحقائق وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب؟ هل من حقهم أن يتحدثوا بما رأوا فى القرآن من أسرار ومعجزات أو نقول لهم: اسكتوا، فليس من حقكم أن تتكلموا حتى فى علوم تدخل فى اختصاصكم؟

هذا ما يفعله الدكتور زغلول النجار وفعله ويفعله كثيرون غيره..

فهو أولاً وقبل كل شىء أستاذ فى علوم الأرض، وليس أستاذا فى التفسير أو الفقه.. وهو ليس داعية من الدعاة ولا ينافسهم.. ولا هو من علماء الدين ولم يدّع ذلك.. هو من رجال العلم، ولا يتكلم–حتى الآن– إلا فى تخصصه، وكل ما فى الأمر أنه مسلم، وأنه يقرأ القرآن. كما يقرؤه كل مسلم، ويؤمن أن هذا القرآن كتاب هداية للبشر أولا وأخيرا، وأنه نزل لهداية البشر فى شئون العقيدة، والعبادة، والمعاملات، والأخلاق، بالإضافة إلى كل ذلك وجد فى القرآن كما وجد غيره أكثر من ألف آية صريحة عن مكونات هذا الكون، ليس المقصود بها أن تكون نظريات أو قوانين علمية، لأن التوصل إلى الحقائق العلمية من

اجتهاد الإنسان، ولكن فهم القرآن، فى ضوء الحقائق العلمية دليل إضافى – بعد الأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية – على وجود الله فى مواجهة ادعاءات المنكرين الملحدين. ودليل على أن هذا القرآن من عند الله ولا يمكن أن يكون غير ذلك.

❑ ❑ ❑

العلماء يقرءون القرآن.. ويتحدثون عما وجدوه فيه مطابقا للحقائق العلمية الثابتة التى توصلت إليها العلوم الحديثة.. وهم يتحدثون كعلماء ولا يتحدثون كفقهاء أو دعاة.. ولا ينازعون علماء التفسير والفقه والشريعة فى اختصاصهم.. فهل هذا حرام؟!.. وهل هذه جريمة تستحق أن نقول لهم: اسكتوا.. لا تعلنوا شيئا عن الإعجاز العلمى أو التفسير العلمى للقرآن.. واكتموا ما توصلتم إليه؟! وإذا كان هؤلاء العلماء يعلمون ويعلنون أن الإعجاز العلمى للقرآن لا يجوز أن يوظف فيه إلا الحقيقة الثابتة فى كل علم، وحتى إذا توصل العلم إلى ما يخالف ما نعرفه اليوم كحقيقة علمية، فهذا لا يسىء إلى القرآن ولايغير منه، لأن ما قاله العلماء اجتهاد من اجتهادات البشر.. يرد عليه الصواب والخطأ.. وإذا أصاب المجتهد فله أجران.. وإذا أخطأ فله أجر..

إن كان هذا ما يؤكده العلماء الذين تحدثوا عن الإعجاز العلمى فى القرآن.. فلماذا الهجوم عليهم؟.. وما الفائدة من هذا الهجوم؟ وما الهدف منه؟ ولمصلحة من؟ هل هم يسيئون إلى القرآن فيجب حماية كتاب الله من هذه الإساءة؟.. أو هل لديهم دوافع خبيثة لخدمة أعداء القرآن والمشككين فيه؟

ومع ذلك.. إذا كان المهاجمون لاجتهاد العلماء فى فهم القرآن يدافعون فى نفس الوقت عن حق من يشككون فى بعض جوانب العقيدة باسم حرية الفكر، فكيف نمنع المدافعين عن القرآن بسلاح العلم، وهو سلاح هذا العصر؟

❑❑❑

و هناك عشرات العلماء قدموا اجتهادتهم فى هذا المنهج لفهم القرآن فى ضوء العلم.. مثل الدراسات التى قدمها الدكتور عبد العليم خضر، وهو أستاذ فى الجغرافيا له أبحاث عن الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن، يثبت فيها أنه ليس هناك أى تعارض بين القرآن والعلم الحديث، وأن أمر الله فى القرآن ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فى سورة يونس (١٠١) تعنى أن ينظر كل مسلم فى السماوات والأرض بما لديه من مقدرة.. بالقلب.. بالعقل.. بأجهزة التصوير والتسجيل الدقيقية.. بالكمبيوتر.. بسفن الفضاء.. وكلما تقدم الإنسان خطوة استطاع أن يجد حقائق جديدة تؤكد له أن الله هو خالق ومنظم هذا الكون ولا يمكن معها إنكار وجود الله وقدرته، أو إنكار أن القرآن كلام الله ولا يمكن أن يكون غير ذلك.. ودراسات الدكتور عبد العليم خضر تشمل حركة الشمس ودورانها، وكيف تطورت رؤية العلماء لها بتقدم العلم، وكيف فهم المفسرون ما ورد فى القرآن عنها وتطور هذا الفهم كلما ظهرت حقائق جديدة عن الأجرام السماوية ومنها الشمس وتوابعها فى المجموعة الشمسية، وحركة دوران الشمس وكل الأجرام السماوية حول محور له دورانًا مستمرًا، وهذا جعل من يقرأ القرآن يفهم فهما جديدا آيات مثل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٣) وكيف نفهم ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ إذا لم نرجع إلى العلماء الذين اكتشفوا حركة الشمس والأجرام السماوية، واكتشفوا قوانين التوازن والجاذبية، والنسبية، والحركة، لكى نفهم كيف تظل مواقع النجوم ثابتة، والأجرام وشمسها على مسافات وأبعاد تجعل لها جميعا مجالا للطواف والدوران دون تماس أو صدام.. كيف يتحقق فى الكون هذا الميزان الدقيق إذا لم تكن هناك قوة أقوى وأعظم.. هى الله ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٧).

وكيف نفهم عظمة الخلق والخالق إذا لم يقل لنا العلماء: إن قوانين التوازن والجاذبية والنسبية التى تحكم الكون من دوران الأرض حول الشمس، ودوران النظام الشمسى حول المجرة، ودوران المجرة حول مركز الأفلاك جميعا، إلى أن نصل إلى أصغر ما فى الكون وهو (الذرة) التى اكتشف العلماء أنها تحتوى على نظام الطواف والدوران المدهش الموجود فى النظام الشمسى والذى يتكرر فى عالم المجرات.. وهذا النظام فى حركة ودوران الذرة مكون من إليكترونات تدور داخل الذرة بسرعة رهيبة حول النواة دون أن يصطدم إليكترون بآخر.. مع أن هذه الإليكترونات تدور حول النواة بلايين المرات فى الثانية الواحدة.. تدور بلايين المرات وليس عشرات أو مئات أو آلاف أوملايين المرات..وليس فى السنة أوالشهر أواليوم أوالساعة أوالدقيقة.. تدور بلايين المرات فى الثانية داخل الذرة التى لا يمكن رؤيتها بالعين.. فهل نمنع العلماء من إيضاح هذه الحقائق عندما يتوقفون عند آية مثل: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ فى سورة الرحمن (٥)

أو قوله تعالى في سورة الأنبياء آية ٣٣:
﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

❑ ❑ ❑

وهل نمنع عالما مثل الدكتور عبد العليم خضر من أن يضع أمامنا حقيقة أن الأذان يتردد في الكرة الأرضية على مدار ٢٤ ساعة دون انقطاع.. ونداء الله أكبر لا يكاد يتوقف في نقطة على الأرض حتى يبدأ في نقطة أخرى.. مواقيت الصلاة محددة بحركة الشمس.. صلاة الظهر مثلا تحين في وقت واحد في كل البلاد التي تقع على خط الطول الواحد، ينطلق الأذان من كل المآذن في لحظة واحدة وينتهي. وبعد ٤ دقائق تكون الشمس قد انتقلت خلالها على خط طول آخر. وقبل أن ينتهي الأذان يكون قد بدأ في جميع البلاد التي تقع على خط الطول التالي.. وهكذا.. والأرض تدور ٣٦٠ مرة كل ٢٤ ساعة ويترتب على ذلك اختلاف التوقيت المحلي للصلاة ساعة كاملة كل ١٥ درجة من درجات الطول، أي ٤ دقائق لكل منها، وهذا هو الوقت الذي يستغرقه الأذان، وبذلك فإن (الله أكبر) تطوف حول الأرض دوزن انقطاع طول الليل وطول النهار وإلى يوم القيامة! فما ينتهي آذان الفجر حتى يبدأ لصلاة الظهر، وما يكاد ينتهي حتى يبدأ الأذان لصلاة العصر.. وهكذا..

لماذا يؤذي البعض إعلان هذه الحقائق العلمية التي لم تعد في مجال الافتراض أو التخمين لكي توسع فهمنا لما جاء في القرآن من ذكر الآيات في الكون والحياة والإنسان؟

❑ ❑ ❑

وكيف نفهم قول الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ فـي سورة (الذاريات: ٢٠) وقوله ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ فـي سورة(النازعات: ٣٠) أوقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ فى سورة(الأنبياء: ٣١)وقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١٢﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٣﴾ ﴾فى سورة(الطارق: ١١، ١٢) وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فى سورة (فاطر: ٢٧) وآية مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الزخـرف: ١٠) قال فيها المفسرون: مهدا أى ممهدة كالبسط المفروشة، سبلا أى طرقا، وقالوا إن المقصود أن الله جعل الأرض ممهدة أى معـدة للإقامـة عليـها مع تكورها وسرعة دورانها، وجعـل فيـها سبلا وطرقـا، وجعـل لكـم الأرض فراشا.. وهكذا.. وقال المفسرون عن الآية ٤١ فى سورة الرعد: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بأنها موجهة إلى كفار مكة ويقول لهـم الله ألم يـروا أنـا نـأتى الأرض فنخربـها ونـهلك أهلها، أفلا تخافون أن نفعل بكـم مثـل ذلـك.. وقـال بعـض المفسـرين نقصان الأرض المقصود به موت العلماء.. وقال الفخر الرازى إن معنـى الآية: أو لم يروا أن كل ما يحدث فـى الدنيـا مـن الاختـلاف خـراب بعد عمارة، وموت بعد حياة، وذل بعد عز، ونقص بعـد كمـال، وإذن فقوة الله أمامكم.. الأمم القوية الغنيـة تكفـر بنعمـة الله فتنقـص قوتـها وتحصر فى رقعة ضيقة من الأرض بعد أن كانت ذات سلطان وامتداد،

وإذا حكم الله عليها بالانحسار فلا معقب لحكمه.. ويمكن أن يكون المعنى أن الله تعالى ينقص أرض الكفر شيئا فشيئا.

ولكن علماء الجيولوجيا ينظرون إلى الآية نظرة مختلفة.. يقولون إن سطح الأرض بعضه يابس مرتفع وبعضه يابس غير مرتفع، ومعظمه ماء.. وسطح الأرض اليابس ينقص إما بإزالة أجزاء منه ونقلها، وإما بإنقاص مساحته بهبوط شواطئه تحت ماء البحار المحيطة بها، فيكون إنقاص الأرض من أطرافها له وجهان محتملان: الأول - إزالة أجزاء من مرتفعات سطحها اليابس ونقلها، والثانى - هبوط بعض الشواطئ تحت سطح البحار.. وهذه وتلك من حقائق العلوم التى لم تكن معروفة وقت نزول القرآن ولم تخطر على بال المفسرين إلى أن توصل إليها العلماء.

فهل هناك مانع من النظر إلى مثل هذه الآية وفهمها فى ضوء هذه الحقائق العلمية؟

❑ ❑ ❑

وفى آية مثل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ قال المفسرون إنها تشير إلى أن الله أتم إعداد الأرض ذلولا أى سهلة مذللة لكى ينتفع البشر بكل ما فيها من معادن ونبات وحيوان وطيور وأسماك.. و.. الخ، وأن الله يذكرهم بنعمته عليهم لأن طول الألفة لحياتهم على الأرض واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها جعلهم ينسون نعمة الله وقدرته فى تذليلها وتسخيرها لهم.

ويرى العلماء المتخصصون فى علوم الأرض أن وصف الأرض (ذلولا) وهو وصف يطلق عادة على الدابة، فالأرض التى نراها ثابتة وساكنة هى فى الحقيقة متحركة، ونحن فوقها كما نكون فوق الدابة، تجرى بسرعة دون أن تؤذى راكبها أو تلقى به ولا تتعثر خطاها.

يقول العلماء: إن معجزة الخالق أن الأرض تدول حول نفسها بسرعة ألف ميل فى الساعة، وتدور فى نفس الوقت حول الشمس بسرعة حوالى ٦٥ ألف ميل فى الساعة، وتركض الأرض والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل ٢٠ ألف ميل فى الساعة.. ومع كل هذا الركض يعيش الإنسان ويمشى وينام دون أن يشعر بارتجاج أو دوخة.. ودورة الأرض حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار.. ولو كان الليل سرمدا لجمدت الحياة كلها من البرد، ولو كان النهار سرمدا لاحترقت الحياة كلها من الحرارة.. ودورة الأرض حول الشمس تنشأ عنها الفصول الأربعة، ولو دام فصل واحد ما قامت الحياة كما نراها، أما الحركة الثالثة فلم يتوصل العلماء إلى حكمتها، ولابد أن لها ارتباطا بالتناسق الكونى الكبير.. والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها أثناء حركاتها الكبرى، وجعل لها الضغط الجوى لكى يسمح بسهولة الحركة فوقها، ولو كان الضغط الجوى أقل من هذا لكان من المستحيل على الإنسان أن ينتقل ويعيش فإما أن يعوقه وإما أن يسحقه بحسب درجة ثقل الضغط، ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان، أو انفجرت تجاويفه لزيادة الضغط الذاتى على ضغط الهواء حوله كما يحدث لمن يرتفعون فى طبقات الجو العليا بدون أجهزة لضبط وتكييف ضغط الهواء.

والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل سطحها من التربة اللينة الصالحة للحياة وللزراعة، ولو كانت كلها من الصخور. كما يفترض العلم بعد برود الأرض وتجمدها لأصبحت الحياة والزراعة مستحيلة.

والله جعل الأرض ذلولا بأن جعل الهواء المحيط بها محتويا على العناصر اللازمة للحياة وبنسب دقيقة لو اختلت فسوف يحدث الاختلال فى الحياة كلها.. نسبة الأكسجين فى الهواء ٢١٪ تقريبا ونسبة الآزوت أو النتروجين ٧٨٪ تقريبا، والباقى من ثانى أكسيد الكربون بنسبة ٣ إلى ١٠ آلاف من الهواء، وعناصر أخرى.. وهذه النسب هى بالضبط النسب اللازمة للحياة على الأرض ولو زادت أو نقصت لأصبحت الحياة على الأرض مستحيلة.

❑❑❑

والحديث يطول..

وملخص الموضوع أن القرآن نزل لكل البشر.. ومن حق كل إنسان أن يقرأه.. ومن واجب كل مسلم أن يقرأه.. ومن حق المفسرين أن يقرءوه فى ضوء تخصصاتهم.. أهل اللغة يقفون عند دلالة اللفظ ومعناه، ومعجزة البيان وتراكيب الجملة والآية، أو معجزة التصوير الفنى للمواقف فى الدنيا والآخرة والتقديم والتأخير فى الكلمات، والموسيقى الداخلية التى تجعل للقرآن رنينا سماويا لا مثيل له.. وهكذا.. وأهل الفقه يقفون عند الأحكام الشرعية وما فى القرآن من الأوامر والنواهى والحدود والحلال والحرام.. وأهل العلوم الاجتماعية والسلوكية يقفون عند القيم والمبادئ الأخلاقية والسلوكية التى تحقق

التوازن والانتظام فى حياة المجتمع.. علاقة الإنسان بأبويه وأبنائه وزوجه وأقاربه و.. و.. هكذا لا يستطيع مفسر واحد أن يدعى أنه قادر على أن يحيط بكل ما فى القرآن من معان وحقائق وإشارات.. لأنه كلام الله.. ولو اجتمع أهل الأرض جميعا على أن يضعوا مثله أو يضعوا سورة أو آية مثله فلن يقدروا، وهذا التحدى قائم إلى يوم القيامة.. وما دام القرآن معجزة دائمة قائمة إلى آخر الزمان.. فمن الطبيعى أن يرى فيه أبناء كل عصر رؤية جديدة تناسب ما وصلوا إليه من تقدم عقلى وعلمى ومعرفى.

وفى فترة كان الناس يعيشون مرحلة البداوة والجهل بحقائق الكون وأسرار الخلق فى الكون والأرض والإنسان والحيوان والطير.. وكانت علوم الجغرافيا والفلك وطبقات الأرض ووظائف الأعضاء وغيرها.. كانت بدائية.. وكان الناس يفهمون الآيات على قدر عقولهم وعلومهم.. والآن تقدمت العلوم، وأصبحت العقول أكثر قدرة على فهم ما كان غامضا فى كلام الله، وعندما يقرأ القرآن الآن علماء الفلك والجغرافيا أو علماء التشريح ووظائف الأعضاء، أو علماء النفس والاجتماع.. أو غيرهم فى جميع التخصصات.. لابد أن يلفت نظرهم أن فى القرآن إشارات إلى حقائق ثابتة فى علومهم.. فهل من حقهم أن يقدموا لنا رؤيتهم أو أن عليهم أن يكتموا ما لديهم ويسكتوا؟.. وإذا قالوا ما لديهم من تفسير علمى للقرآن أو أدلة على المعجزة الإلهية التى تتجسد فى القرآن فهل فى ذلك فائدة لقضية الإيمان ودعم المؤمنين أو أن فيه إضرارًا بالعقيدة؟

هذه أسئلة أجاب عنها شيوخ الأزهر السابقون، وأيدوا هذا الاتجاه وناصروه من أمثال الشيخ محمد عبده، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ حسن مأمون، والشيخ عبد الحليم محمود.. وغيرهم.. وغيرهم.. ولا تزال كلمات الله تتحدى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣).

فلماذا يريد البعض أن يمنع الذين يعلمون بعض الحقائق وبعض آيات الله فى الآفاق وفى أنفسنا من أن يقولوا كلمتهم؟.

لماذا يريدون أن تكون حرية الرأى وحرية القول للملحدين.. ولا تكون للمؤمنين؟

رأى الإمام الأكبر

سألت فضيلة الإمام الأكبر: هل التفسير العلمى للقرآن والحديث عن الإعجاز العلمى للقرآن فيه ما يخالف الشرع؟

وتحول السؤال إلى موضوع للحوار، وكان ملخص رأى شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى أن هناك مجالا لكل علم وكل تخصص، ويجب أن يتحدث كل عالم فى المجال الذى تخصص فيه، لأنه حين يتحدث فى تخصصه فإنه يقول كل كلمة وهو واثق من صحتها، ولكنه حين يتجاوز حدود اختصاصه ويدخل فى مجال غير مجال تخصصه فإنه يكون عرضة للخطأ، أو الانزلاق إلى الفتوى بغير علم، أو الادعاء بأنه عالم فى كل العلوم وهذا لا يتفق مع طبيعة هذا العصر.

فنحن فى عصر التخصص الدقيق، فى مجال العلوم الشرعية هناك عالم متخصص فى التفسير، وآخر متخصص فى الحديث، وثالث متخصص فى الفقه، ورابع متخصص فى علم الأديان ولكل علم مدارس فكرية، ولكل علم منهج يختلف عن الآخر.. وكل علم يستغرق عمر الإنسان كله لكى يلم به إلماما كاملا، والكمال لله وحده.. وهذا هو الحال فى جميع العلوم.. علم الجغرافيا مثلا هناك الجغرافيا البشرية، والجغرافيا السياسية، والجغرافيا السكانية، والجغرافيا الطبيعية، وكل علم منها له علماء متخصصون.. وهكذا.

وقال الإمام الأكبر: أما علماء الدين - وأنا منهم - فليس لهم أن يقحموا أنفسهم فى مجال العلوم الطبيعية أو الجغرافية وليس لهم أن يتحدثوا فى علوم التشريح أو وظائف الأعضاء أو علوم الفلك وطبقات الأرض أو غيرها، وليست لديهم الخلفية العلمية التى تجعلهم مؤهلين لمناقشة النظريات التى تدخل فى اختصاص العلماء المتخصصين.. فأنا لا أستطيع أن أجادل عالما متخصصا حين يقول إن تحت مياه المحيطات طبقات من النار، أو حين يقول إن الوزن الذرى للحديد كذا، أو إن أحوال الكواكب والمجرات فى الفضاء كذا أو كيت. كذلك ليس من المستحب أن يدخل عالم الفلك وطبقات الأرض فى مجالات العلوم الشرعية أو يقول للناس هذا حلال وهذا حلام، ويتصدى بالفتوى، وأعتقد أنه على وعى بذلك، وهو أكبر من أن يورط نفسه فى مجالات علمية لا تدخل فى تخصصه.

وقال الإمام الأكبر أيضا: إننى ألاحظ أن هناك كثيرين يتجرءون على الفتوى وهم غير مؤهلين لذلك، ولم يدرسوا العلوم الشرعية دراسة كاملة ومتعمقة، ويعتمدون على قراءة رأى هنا أو هناك، ويرددون آراء يلتقطونها من بعض الكتب القديمة دون أن يطلعوا على ما أثير حول هذه الآراء من اختلافات، ودون أن يعلموا الظروف التاريخية التى عاش فيها صاحب هذا الرأى، والقضايا التى كانت مطروحة فى عصره، والسياق الذى قال فيه بهذا الرأى.. والجرأة على الإفتاء فى دين الله يتحمل مسئوليتها أمام الله من يتصدى لها، وحسابه عند الله عسير إذا كانت الفتوى بغير علم كاف وتمحيص وتدقيق ومراجعة من

كل الوجوه، لأن الفتوى مسئولية كبيرة، فإن كانت خطأ يتحمل صاحب الفتوى وزرها وهو وزر كبير، ويتحمل أيضا وزر من عمل بها إلى يوم الدين؟

❑❑❑

وقال الإمام الأكبر: إننى ألاحظ أيضا أن هناك من أهل العلم الشرعى من يتسرع بالفتوى فى أمور مستحدثة فى العلم، وحتى المتخصصون فى هذه العلوم ليست لديهم إجابات دقيقة وكاملة عن كل الأسئلة التى تثار حولها، ولذلك أقول دائما: أنا لست من علماء الوراثة أو الفلك أو التشريح أو الكيمياء أو غيرها، أنا أتحدث فى حدود اختصاصى فى العلوم الشرعية، وحين تعرض علىّ مسألة تدخل فى اختصاص علم من العلوم الأخرى فأنا أسأل المتخصصين فى هذه العلوم، وأعتمد على أقوال الكبار منهم الذين أثق فى صدق ما يقولونه، وأنزل الحكم الشرعى فى ضوء الحقائق العلمية الثابتة التى يتفق عليها أصحاب هذا العلم، لأقول: هذا حلال وهذا حرام، وهذا ما أحرص عليه فى كل فتوى أصدرتها أو أصدرها.. فعندما بحثت فى معاملات البنوك، عقدت اجتماعات مطولة استغرقت أكثر من عامين مع علماء الاقتصاد، والأساتذة الذين يدّرسون أعمال البنوك فى كليات التجارة، ومع قيادات البنوك، ومع محافظ البنك المركزى، وزرت عددا من البنوك والتقيت مع العاملين فى أقسام الودائع والاستثمار وتابعت معهم الأسس التى يقوم عليها عملهم، وطبعا رجعت إلى كل ما كتب من قبل من اجتهادات أساتذة الفقه والاقتصاد، إلى أن اطمأن قلبى إلى أن ما تسميه البنوك (ودائع) لايدخل فى التعريف الشرعى للوديعة، لأن

الوديعة هى أن تضع أموالك أو بعض ما تملك من مجوهـرات مثلا عنـد بنك أو عند شخص، ويكون مسئولا عن حماية هذه الوديعة، لايمسها، ولا يتصرف فيها، ولكنه حارس عليها ومقابل ذلك فإنه يستحق أجرًا..

ومفهوم (الوديعة) الصحيح فى البنوك يتحقق حين تذهب إلى البنك وتستأجر خزانـة وتدفـع إيجـارا شـهريا أو سـنويا لهـا، وتضـع فيـها أموالك أو مجوهراتك، ولا يملك البنك أن يتصرف فـى شـىء ممـا فـى هذه الخزانة، ويأخذ أجرا على ذلك..

وما يحدث فى البنك لما يسـميه (وديعـة) شـىء مختلـف.. فـالبنك يـأخذ أموالـك، ويضيفـها إلى أموالـه وأمـوال غـيرك ممـن يسـميهم (مودعين) ويوظف هذه الأموال فى مشروعات تحقق لـه أرباحـا، وهـو لايدخل فى مشروع إلا بعد دراسة جـدوى تؤكـد لـه أنـه سـيحقق مـن ورائها ربحا، وإذا خسـرت عمليـة فـهناك عشـرات العمليـات تحقـق أرباحا، وإذا هرب أحد المستثمرين بما أخذه من البنك فهناك عشرات غيره من المستثمرين الشرفاء ممـن يرعـون الله ويتمتعـون بضمـائر حيـة ويخشون حساب الله ولا يقبلون إلا المال الحلال. وهؤلاء يؤدون للبنـك ما أخذوه، ويضيفون إليه نصيـب البنـك ممـا حققـوه مـن الأربـاح مـن مشروعاتهم، وفـى آخـر العـام فـإن البنـوك تحقـق أرباحـا مـن جملـة استثماراتها.

وبالنسبة للشخص الذى أعطى البنك المال. فإن العلاقـة بينـه وبـين البنك أنـه أعطـى البنـك وكالـة مطلقـة، وقـال للبنـك خـذ هـذا المـال واستثمره فى مشروعاتك واعطنى عشرة فى المائة من قيمة أموالك، هنـا

العلاقة علاقة وكالة مطلقة، وهذا هو الحكم الشرعى لهذه العلاقة، وكل إنسان يستطيع أن يعطى ماله لشخص ويقول له استثمر هذا المبلغ واعطنى نصيبا من الربح، ولكن لأن ذمم الناس فى هذا الزمان أصبحت موضع شك. فصاحب المال يجد الأمان فى إعطاء ماله للبنك لأنه مؤسسة تخضع لرقابة البنك المركزى وجهاز المحاسبات ولايدخل الغش أو التحايل فى معاملاتها.

❑ ❑ ❑

وبقيت أمامى مسألة: أن البنك يحدد نصيب صاحب المال مقدما، ويقول له سأعطيك عشرة فى المائة، وقال البعض إن تحديد نسبة الربح مقدما حرام، ولكن عندما تعمقت فى تحليل هذه المعاملة. كما يحدث فى داخل البنوك وجدت أن البنوك تحقق أرباحا ولا تحقق خسائر، ووجدت أن البنك يحدد لصاحب المال نسبة ربحه فى ضوء حسابات دقيقة يجريها البنك تجعله مطمئنا إلى أن ما يعطيه لأصحاب الأموال هو جزء من الأرباح الحقيقية التى يحققها، وهو يحتفظ بجزء من الأرباح احتياطى لتغطية أية خسائر غير متوقعة، وما يزيد على ذلك يرسله البنك إلى وزارة المالية إذا كان البنك من البنوك العامة المملوكة للدولة، وراجعت أحوال البنوك لعشرات السنين فوجدت أنها تحقق أرباحا أكبر مما تعطيه لأصحاب الأموال ولم يحدث أن حقق أحد البنوك خسائر فى سنة من السنين.. وإذا حدث أن حقق خسارة فإن لديه الاحتياطى الذى يغطى هذه الخسائر، وإذا افترضنا أن الخسائر زادت على الاحتياطى. فإن الدولة التى أخذت فائض أرباح البنك ملزمة بتغطية هذه الخسارة.

والخلاصة أننى بعد دراسة مع أهل التخصص اطمأن ضميرى إلى أن مايسميه البنك وديعة ليس وديعة والتسمية الخطأ أدت إلى تضليل من يتصدى للفتوى، لأن صاحب الوديعة لايستحق شرعا أن يأخذ شيئا عنها بل عليه أن يدفع مقابل الحراسة والضمان، والتسمية الصحيحة أنها «استثمار» والعلاقة بين البنك وصاحب المال هى علاقة وكالة مطلقة، صاحب المال يوكل البنك فى استثمار ماله فيما يراه من مشروعات، وتحديد الربح مقدما هو اتفاق قائم على حسابات أكدها الواقع، وهى ضمان لصاحب المال، لكيلا يأخذ البنك الربح كله ويقول لصاحب المال: لم نحقق ربحا، ونحن فى عصر لم يعد أحد يطمئن فى المعاملات إلا لما هو معلوم مقدما وثابت ومتفق عليه بالتعاقد الصريح.. ولذلك انتهيت إلى أن هذه المعاملة مع البنوك حلال. وقلت إننى أنا نفسى قدمت ما ادخرته من عملى طول عمرى للبنك لكى يستثمره وأخذ نصيبى الذى يعيننى على الحياة، ولم أقل: إن كل معاملات البنوك حلال، لأنه يجب أن أدرس كل معاملة دراسة متأنية قبل الحكم عليها.

ولقد انتهيت من دراسة ما يسمونه وديعة وطلبت من البنوك أن تغير التسمية لكى تطابق الواقع فتستخدم لفظ «استثمار» ولاتسمى نصيب صاحب المال «فوائد» ولكن تسميه «عائد استثمار».. لأن هذا العائد لايدخل ضمن مفهوم «الربا» كما هو فى الشريعة.. فالربا حرام قطعا، وبالنص الصريح فى القرآن، ما هو «الربا».. البعض يقول: إن أية زيادة فى المال ربا، وهذا غير صحيح، فهناك زيادة عن طريق المتاجرة، أو المرابحة، أو الوكالة، أو غيرها من صور المعاملات العديدة وكلها

معاملات حلال عند جميع الفقهاء، أما الربا فهو شيء آخر. الربا هو أن يلجأ شخص إلى الاقتراض من أجل ضرورات الحياة، أى من أجل أن يأكل أو يدفع مصاريف العلاج أو ثمن الدواء، لأنه إن لم يحصل على هذا القرض يموت أو تكون حياته مهددة، وحين يطلب قرضا لهذه الضرورة يشترط عليه الذى سيقرضه أن يعيد القرض مقابل زيادة فى أصل الدين.. هذا ربا.. لأنه يتوافر فيه أمران لابد من توافرهما فى القرض لتكون الزيادة ربا.. الشرط الأول هو الاحتياج الشديد لضرورات الحياة.. والشرط الثانى هو الاستغلال.. استغلال المقرض لاحتياج من يطلب القرض، وهذان الشرطان غير متوافرين فى حالة« الاستثمار» لأن البنك لايأخذ منك المال لأنه محتاج لضرورات الحياة، ولكنك أنت الذى تذهب إلى البنك وتقول له خذ هذا المال واستثمره لأنى لو احتفظت به فسوف تأكله الزكاة ولن أستطيع أن أعيش، وأنا أقبل ما تعطينى من نصيب مما تحققه من أرباح، وأعطيك توكيلا مطلقا لتوظيف واستثمار هذا المال فيما يراه الخبراء والمتخصصون عندك.. إذن فشرط الاحتياج غير متوافر لدى البنك.. وكذلك شرط الاستغلال ليس متوافرا عند من يعطى ماله للبنك.. والعائد من أرباح حقيقية للأموال التى أودعتها أنا وغيرى من المستثمرين والحكم الشرعى فيها .

أما بقية المعاملات الأخرى للبنوك فكل معاملة منها تحتاج إلى دراسة وبحث لتحديد طبيعتها والحكم الشرعى فيها..

❑ ❑ ❑

فإذا طبقنا هذا المثال على ما يقوله الدكتور زغلول النجار فإن رجل الدين لايستطيع أن يجادله فى الحقائق والنظريات العلمية التى

يتحدث عنها.. حركة الكواكب وتركيب الأرض وغير ذلك، ولا أجد ما يمنع من أن ينظر أحد العلماء فى القرآن ويجد فيه إشارات إلى حقائق توصل إليها العلم مؤخرا، بشرط أن يفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية، الحقيقة العلمية هى الحقيقة التى تأكد العلماء من صحتها وتجمعت لديهم أدلة واضحة على ذلك لا تقبل الالتباس أو الشك أو عدم اليقين.. أما النظرية العلمية فهى نتيجة اجتهاد عالم أو مجموعة من العلماء لم تتأكد صحتها وتقبل الجدل والشك والمراجعة.. لذلك أقول يمكن فهم ما فى القرآن فى ضوء الحقائق العلمية وليس فى ضوء نظريات يمكن أن يثبت غدا عدم صحتها وتظهر نظرية أخرى تختلف معها.. وما دام الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نسير فى الأرض ونرى آيات القدرة والإعجاز فى الكون، وفى أنفسنا، وفى الحيوان، والنبات، والظواهر الطبيعية.. فى هذه الحدود للعلماء أن يتحدثوا.. أما إذا تجاوزوا هذه الحدود.. أو دخلوا فى اختصاص غيرهم. فإنه يجب تحذيرهم من الوقوع فى الخطأ وأن يقولوا على الله بما لا يعلمون.. فليس لعلماء الجغرافيا والطبيعة والطب أن يتصدوا للفتوى فى الدين، وأن يحكموا بالحلال والحرام، لأن هذا ليس ميدان تخصصهم.

❑ ❑ ❑

وقال فضيلة الإمام الأكبر: لقد حذر علماء الدين كثيرا من الميل إلى الإفتاء فى دين الله بغير علم وبينة، لأن فى ذلك إفسادا للدين وللعقول، واجتراء على الفتوى يشجع كل واحد على أن يصدر الفتاوى بسهولة ويحكم بالحلال والحرام. ومازلت أحذر - كما فعل شيوخنا

السابقون - من أقوام بصرهم بالقرآن كليل، وحديثهم عن الإسلام جرئ، واعتمادهم كله على مرويات لايعرفون مكانها من الكيان الإسلامى المستوعب لشئون الحياة.. وأن اختطاف الحكم من حديث عابر دون تمحيص وتدقيق لمعرفة درجة صحة هذا الحديث، واختيار نصوص معينة من كتب معينة وضعها أصحابها فى ظروف معينة، فهذا خطر على الإسلام والمسلمين.

❑ ❑ ❑

ويتطرق الحديث إلى من يجلسون مجلس الإفتاء من الشباب والعامة، وهم لم يدرسوا الفقه وعلوم القرآن والحديث دراسة كافية، قال إمامنا الأكبر: هؤلاء أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من أعداء الإسلام، لأنهم مسلمون، والعامة من الناس تستمع إليهم، وقد تصدقهم، وتعمل بأفكارهم وبفتواهم، وقد أشار الرسول ﷺ إلى أنه سيأتى زمان يتصدى فيه الجهلاء للفتوى فى الدين، ويتسببون فى إضلال فريق من المسلمين، وذلك فى الحديث الشريف «إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالما، اتخذ الناس رؤساء جهلاء، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا». ويجب أن ندرك هذا التحذير من الرسول ﷺ.

❑ ❑ ❑

ونعود إلى التفسير العلمى للقرآن، فنقول إنه ليس تفسيرا، ولكنه جانب من جوانب التفسير لبعض الآيات التى تشير إلى ظواهر كونية أو حقائق عن الإنسان والحيوان والنبات والجبال وغيرها.

وعلى ذلك عندما يأتى علماء الجغرافيا ويتوقفون عند بعض الآيات فإن ذلك يعمق إيمان المؤمنين، وينبه إلى عظمة الله فى الآفاق.

والعقاد فى كتابه (عقائد المفكرين فى القرن العشرين) يشير إلى التفات علماء الطبيعة إلى ما فى الكون من ظواهر بالغة التعقيد وفيها نظام غاية فى الدقة، دون الالتفات إلى أن وراء ذلك قوة الله التى وضعت هذا النظام الدقيق الذى يعجز العقل البشرى عن الإحاطة به، فيقول العقاد: «ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعى لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة وخالقها.. إذ ليست هذه وجهته، وقد تكون النتيجة أكبر جدا من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة، إلا أننا خلقاء أن نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسَّروا للنزعة الدينية أن تتنفس فى جو العلم، حيث لم يكن ذلك يسيرا فى أيام آبائنا وأجدادنا.. فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يبحثوا فى الله، فنحن نقرر أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى.. فالعلم بهذا المعنى يقود الإنسان إلى اليقين والاطمئنان إلى الله..

هذا بعض ما قاله إمامنا الأكبر، أو هو ما فهمته من حوار طويل، سبقته حوارات فى صحبة امتدت أكثر من عشرين عاما لم ينقطع فيها الحوار بينى وبين فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى.

وخلاصة ما فهمته أن اتركوا العلماء يتحدثون بآيات الله فى الكون ما دام حديثهم فى حدود اختصاصهم العلمى ولايتجاوزوه إلى اختصاص غيرهم من العلماء المتخصصين فى العلوم الدينية.

قواعد المنهج للتفسير العلمى

لايستطيع أحد أن يدعى أنه أول من تحدث فى التفسير العلمى للقرآن، أو أنه مؤسس منهج الربط بين الحقائق التى توصلت إليها العلوم الحديثة والآيات التى أشارت إلى هذه الحقائق، ولم يدرك أبعادها الحقيقية المفسرون القدماء.. هناك عشرات من العلماء والكتب والمراجع فى مصر وكل الدول الإسلامية تقريبا تمثل المصدر الرئيسى لهذا الإتجاه فى فهم وتفسير آيات الله..

ولم يكن حظ هؤلاء العلماء من الشهرة مثل حظ الدكتور زغلول النجار، لأنهم لم يجدوا أحمد فراج ليروج لهم، ولم يجدوا التليفزيون ليوصلهم إلى الملايين فى البيوت ويحيطهم بهالة من الشهرة والانتشار.. فهؤلاء كانوا علماء متفرغين لأبحاثهم ودراساتهم، وعملوا فى صمت، وهذه هى طبيعة الحياة.. ناس تزرع.. وناس تجنى الثمار..

قبل زغلول النجار - مثلا - كانت للدكتور منصور حسب النبى دراسات كثيرة عن الكون والإعجاز العلمى فى القرآن.. وعن ارتياد الفضاء بين العلم والقرآن.. وعن عجائب وأسرار الإشعاع الذرى والطاقة النووية.. وفى هذا البحث يتحدث عن التركيب الذرى للمادة وعن الليزر والطاقة وأنواع الأشعة وعشرات الموضوعات تفتح عينيك على ما فى الكون من نظام شديد الدقة لا يمكن أن يكون مصادفة أو بدون

قوة خالقة ومسيطرة ومنظمة وقادرة وقدرتها لا حدود لهـا.. هـى الله.. وله أيضا أبحاث رائعة عن إعجاز القرآن فى آفاق الزمان والمكان..

وحتى الآن لم يأت على لسان الدكتور زغلول النجـار اسم الدكتـور منصور حسب النبى، مع أن من سمات العلماء أن يذكـروا مـن سـبقهم فى ميـادين البحـث، ويـردوا الفضـل لأصحابـه.. خاصـة أن الدكتـور زغلول النجار متخصـص فـى علـوم الأرض، والدكتـور منصـور حسـب النبى متخصص فى علوم الفيزياء، وكان أستاذا للفيزياء بكليـة البنـات بجامعـة عـين شمـس، ووكيـلا للكليـة للدراسـات العليـا، واشـترك بالبحوث ورئاسة جلسات مؤتمرات الإعجاز العلمى للقرآن التى عقدت خلال عشر سنوات بـين عـامى ١٩٨٥ و١٩٩٥ بالقـاهرة ومكـة وإسـلام أباد وموسكو وباندونج وقنا، وكانت له أحـاديث ونـدوات، كمـا كـان أحد المؤسسين لجمعية الإعجاز العلمى للقرآن عام ١٩٨٨ وكـان رئيسـا لها.. فهو إذن معروف وأبحاثه منشورة، وكل مـن يكتـب أو يتحـدث عن الإعجاز العلمى فى القرآن يعتمـد علـى أبحاثـه الكثـيرة كمرجـع أساسى لا غنى عنه لكل مشتغل بهذا الموضوع.

وموضوع الإعجاز العلمى للقرآن عنـد الدكتـور حسـب النبـى قضيـة مطروحة منذ سنوات توصل إلى إثبات صـدق نبـوة الرسـول ﷺ وصـدق القـرآن، وأنـه مـن عنـد الله ولا يمكـن أن يكـون مـن عنـد غـير الله، وإلا لكانوا قد وجدوا فيه اختلافا بـين مـا يقـرره عـن الكـون والإنسـان وما أصبح معروفا للعلماء بالمشـاهدة والتجربـة ولم يعـد موضـع تخمـين أو موضع شك.. وكذلك كان يرى أن فى هـذا الموضـوع منـهجا جديـدا

للدعوة لدين الإسلام بلغة العصر.. وهذا المنهج لايتعارض مع منهج الدعاة ورجال الدين وهم متخصصون فى علوم الفقه والشريعة وأصول الدين.. الخ، فهذا طريق وهذا طريق، والطريقان يلتقيان فى النهاية، وحقائق العلم أقصر طريق لإقناع العقول، لأن حقائق العلم تتحدى الذين لا يؤمنون إلا بما يرونه ويلمسونه ويدركونه بالحواس، فتقدم لهم الأدلة التى لا يمكن إنكارها على وجود الله وصدق القرآن، وهذا ما وعد الله به فى سورة فصلت (٥٣)﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾..

❑ ❑ ❑

وهذا المنهج يقضى على الازدواجية المصطنعة بين العلم والإيمان.. ويثبت أنه ليس هناك اختلاف ولا تناقض.. ويثبت أيضا أن على المسلمين أن يتعمقوا فى دراسة العلوم الحديثة ويتعودوا على التفكير بمنهج علمى بعيد عن الخرافات والأقوال المرسلة التى ليس عليها دليل، والتى أقحمت على الفكر الإسلامى فى عصور الانحطاط والتخلف والجهل، فالثقافة العلمية بهذا المفهوم هى جزء من الثقافة الدينية.. وعلى المسلمين أن يدركوا أن دينهم يدعوهم إلى البحث فى العلوم الكونية ليلحقوا بالذين سبقوهم ويتعرفوا على أسرار كوكب الأرض، وما يصيبه من تهديد من صنع الإنسان بما صنعه من قنابل ذرية، وصواريخ وأسلحة دمار تهدد الأرض وأهلها، وأيضا ما يسببه الإنسان من فساد للبيئة التى خلقها الله بإتلاف طبقة الأوزون التى تقع على بعد ٢٥ كيلومترا من سطح الأرض، وتحتوى على غاز مطهر

يقوم بامتصاص الأشعة فوق البنفسجية ليحمى الأرض وما عليها من أضرارها الخطيرة إذا زادت على القدر اللازم لاستمرار الحياة، ولكن الإنسان يتلف هذه الطبقة تدريجيا بما يصنعه من مواد كيماوية وتلويث للبيئة واستئصال للأشجار وزيادة نسبة ثانى أوكسيد الكربون من عوادم السيارات والمصانع، مما أدى إلى ما يسميه العلماء «ثقب الأوزون» وبالتالى إلى تمهيد الطريق لانتحار كوكب الأرض على يد الإنسان.

ومع استمرار تلوث البيئة بما يفعله الإنسان يتوقع العلماء غرق جميع المدن الساحلية خلال نصف قرن نتيجة ارتفاع درجة حرارة الأرض، وتزحزح حزام المطر، وغرق دول بأكملها بعد ذوبان الجليد عند القطبين تدريجيا وارتفاع مستوى مياه البحار والمحيطات، وحدوث جفاف فى مناطق أخرى، كما يتوقع العلماء انهيار جهاز المناعة عند الإنسان وانتشار السرطان وأمراض عتامة القرنية بسبب زيادة جرعة الأشعة فوق البنفسجية.. وهذا السلوك العدوانى من الإنسان قد يؤدى إلى حرب نووية تدمر كل شئ.. أو يؤدى إلى تلوث البيئة وتدمير طبقة الأوزون، وبالتالى تدمير كوكب الأرض.. هذا السلوك العدوانى من الإنسان يذكرنا بقول الله تعالى فى سورة البقرة (الآية ٣٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ وقوله تعالى فى سورة يونس (الآية ٢٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا

كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾

هذا ما قاله الدكتور حسب النبى منذ سنوات ولم يعد أحد يذكره اليوم.. مع أنه كان يهدف إلى تربية أجيال تحمل رسالة العلم والإيمان معا، لتوظيف العلم للبناء وليس للخراب.. وكان يقول: الحمد لله أنى عشت لأرى قلعة الإلحاد تتهاوى فى الاتحاد السوفيتى ويعود إليها الإيمان..

وكان يقول: إن البحث فى الإعجاز العلمى للقرآن هو تلبية لقوله تعالى فى سورة النمل (الآية ٩٣) ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ وهو يلاحظ أن حرف السين فى ﴿ سَيُرِيكُمْ ﴾ يعنى المستقبل الذى لاينتهى حتى قيام الساعة، كما قال تعالى عن القرآن: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾(سورة ص الآية٨٨).

والشئ الذى فعله الدكتور حسب النبى ولم يفعله كثير غيره من المجتهدين فى الدعوة، أنه ألف كتابا باللغة الإنجليزية عن القرآن والعلم الحديث، بينما يكتفى معظم الدعاة إلى الدعوة باللغة العربية، ويوجهون الخطاب للمؤمنين،بدلا من أن يوجهوا خطابهم إلى المنكرين للإسلام وللقرآن وباللغة التى يفهمونها، لأن كل عالم يستمع أو يقرأ ما يقوله الدكتور حسب النبى لابد أن يصل إلى اليقين بأن القرآن حق من عند الله، وصدق الله حين قال فى سورة الحج (الآية٥٤) ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾

وكان يرى أيضا أن الربط بين العلم والقرآن لازم لدفع المسلمين إلى التخلص من التخلف والكسل والتواكل وسوء التخطيط والاعتماد

على الغير. . وكان يقول : إنى لأعجب عندما أقارن بين الكشف العلمى وما فيه من إعجاز القرآن وبين واقعنا المتخلف رغم أن الإسلام دين علم، وظلت هذه دعوته إلى أن فارق دنيانا.. وهو يردد: الكون كتاب الله المفتوح ، والقرآن كتاب الله المقروء ، وما نعلمه من الكون لايزال ضئيلا بالنسبة إلى ما لا نعلمه، ولذلك دعانا الله إلى البحث فى ظواهر الكون فى سورة يونس(الآية: ١٠١) ﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .. والقرآن يحتوى على أكثر من ٨٠٠ آية كونية فيها حقائق علمية غاية فى الإعجاز، حتى شملت أهم الاكتشافات العلمية فى القرن العشرين فى الذرة والنسبية، وغزو الفضاء، والطبيعة الجوية والفلكية، وغيرها من الحقائق التى لم يكن الإنسان.. ولم يكن الرسول ﷺ ..... ليعلم شيئا عنها..

بذلك يكون التحدى فى القرآن . . ليس مقصورا على الإعجاز اللغوى الذى تحدى فصحاء العرب .. ولكن هناك التحدى الآخر الأكبر والأعظم والذى يتفق مع العصر.. فهذا عصر العلم.. والتحدى فى القرآن بالعلم.. وبذلك يكون القرآن معجزة الدهر . . معجزة خالدة متجددة.. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾فصلت (٥٣).. فالعلم نور الله فى الكون.. وقد نجد العذر للمفسرين القدامى عندما فسروا الآيات التى تشير إلى الحقائق العلمية بتأويلات خاطئة.. وهذا هو الوقت المناسب لتنقية كتب التفسير القديمة منها حتى لا يقرؤها شباب جاهل لايفرق بين الصحيح وغير الصحيح ويرددها ويتصور أنها تمثل التفسير الصحيح للآيات..

يرد الدكتور حسب النبى على الذين يعارضون التفسير العلمى للقرآن بالقول بأن العلم يتغير فيقول: إن العلم فى نهاية القرن العشرين يتطور دون أن تتغير حقائقه الأساسية الثابتة، فإذا كانت الحقيقة العلمية تتفق مع نص الآية القرآنية، فما الذى يمنع عقلا وشرعا من تفسير الآية طبقا لتلك الحقيقة العلمية الثابتة المؤكدة.. وما دام العلم هو اللغة الدولية.. وما دمنا فى عصر يؤمن بالمادة وبالعلم.. فلماذا نحرم أنفسنا من مسايرة العصر والتحدث بلغته..؟ فتطمئن قلوب المؤمنين ويجدوا إجابات على تساؤلات يطرحها العصر، ولايشعروا بالنقص فى الأسانيد والحجج على صحة عقيدتهم.. ولكى يخرس الذين ينكرون أن القرآن كلام الله.. وأن محمدًا - ﷺ - رسول الله.

❑ ❑ ❑

والمدنية الحديثة تأتى إلينا من الغرب.. والغرب يعانى أزمة أخلاقية وروحية.. وهذه المدنية تهدد العالم.. أمريكا تنتج أسلحة نووية وجرثومية وكيماوية بما يزيد على ألف مليون دولار يوميا..! بينما يموت من الجوع ١٥ مليون إنسان معظمهم من الأطفال، ويعانى ٥٠٠مليون إنسان من نقص الغذاء، و٤٠٪ من سكان العالم يعانون من نقص الأدوية والعلاج والرعاية الطبية، و٣٥٪ من أهل الأرض لايجدون الماء الصالح للشرب.. فهل هذه مدنية؟.. والأموال التى تنفق فى تصنيع الأسلحة، والمفاعلات النووية، حتى أصبح مخزون الأسلحة النووية يكفى لتدمير كوكب الأرض..فهل هذا تصديق لتحذير الله أهل الأرض الذين يصيبهم الغرور بقوتهم: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ

شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ الأنعام (٦٥).

هكذا المدنية الحديثة.. نعمة.. ونقمة.. والتعامل معها من منظور إسلامى يعطيها البعد الروحى والأخلاقى، ويجعل العلم لخير البشرية ولتعمير الأرض وليس العكس..

❑❑❑

والقرآن هو الذى يرد على من يهاجمون منهج التفسير العلمى للقرآن، حين يقولون: إن النظريات العلمية قابلة للتغير.. القرآن يدعونا ألا نعتمد إلا على الحقيقة الثابتة ولا نعتمد على الاحتمالات أوالفروض أوالظنون: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ الأنعام(١٤٨) و﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ يونس (٣٦)- وإذن فلابد من البحث فى أسرار الطبيعة والإنسان بالبرهان التجريبى وليس بغيره.. والقرآن ينكر على الكفار اعتمادهم على الظن والقول بغير دليل:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ الجاثية (٢٤).

والقرآن يدعو إلى استخدام العقل وتحرر العقل من اتباع السابقين دون مراجعة وتمحيص: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ المائدة (١٠٤).

ومنهج التفسير العلمى يؤكد للمسلمين أن القرآن يدعو إلى استخدام العقل كأحد أركان العبادة:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة - ١٦٤).

والقرآن يشير إلى أن فى الكون قوانين علمية ثابتة، مضطردة، لاتتغير﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ فاطر (٤٣)-وليس هناك تناقض فى الكون: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ الملك (٣)، مما يدل على خضوع الطبيعة والإنسان لنظام وقوانين بينها تناغم وتكون منظومة متكاملة، وكأنها سيمفونية يعزفها ألف عازف، وفيها آلاف النغمات، ولكن اللحن واحد، يدل على النوتة الموسيقية التى يعزف عليها العازفون جميعا واحدة،«والمايسترو» الذى يقود الجميع واحد.. وسبحان الله أن يكون له شبيه.

القرآن يدعو العقلاء إلى استعمال البصر والسمع ووسائل البحث المتصلة بها من أجهزة وميكرسكوب وتلسكوب وأجهزة رنين مغناطيسى وأشعة ليزر و ... و.. ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يونس (١٠١).. فماذا ننظر؟ وكيف ننظر.. هل بعيوننا المجردة، طبعا بكل الأجهزة والوسائل العلمية المتاحة.. وهل كل

واحد منا سينظر إلى السموات والأرض يستطيع أن يكتشف ما فيها من معجزات الخلق والخالق، طبعا لايستطيع ذلك إلا العلماء.. وهل البحث عن بدء الخلق حرام كما يقول البعض؟.. والله يجيب عنهم: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ العنكبوت (٢٠).

وشرط العلم فى الإسلام أن يكون نافعا، ولهذا كان الرسول ﷺ يستعيذ من العلم الذى لاينفع: (اللهم إنى أعوذ بك من قلب لايخشع، ومن دعاء لايُسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لاينفع).

وكل ما فى الكون خلقه الله لخدمة الإنسان، وبالعلم يتوصل الإنسان إلى استغلال ما فى الكون لصالحه على الوجه الأكمل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية (١٣).

وبالعلم وحده يتوصل الإنسان إلى القوانين التى تحكم الظواهر، ويدرك أن ما يراه من الاختلاف والكثرة والتعدد فى الكون وراءه نظام وتكامل ووحدانية، ولو لم يكن كذلك لأصاب الكون اختلال شديد، ولا كانت قوانين الطبيعة ثابتة، وهذا دليل وحدانية الله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء (٢٢).

والإنسان عليه أن يبحث فى الكون والطبيعة، وفى الحيوان وطبيعة الإنسان، وفى النبات، وإلى كل ما فى الوجود لأن ذلك يقوده إلى المعرفة، ويعطيه قوة وقدرة على تسخير كل شىء لصالحه، وأهم من ذلك يقوده إلى الإيمان بالله الخالق:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الغاشية (١٧-٢٠).

وما لم يعلمه الإنسان بالأمس أصبح يعلمه اليوم، وما لا يعلمه اليوم سيعلمه غدا أو بعد غد ما دام مجتهدا في البحث: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾(ص الآية: ٨٨)، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام (٦٧).

والمعرفة الإنسانية ليست معرفة مطلقة.. ولكنها معرفة نسبية.. المطلق هو الله وحده: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة: الآية ٢٥٥) و﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء (٨٥) و﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف (٧٦)..

ومهما اجتهد الإنسان في البحث العلمي، ومهما بلغ به التقدم في الوصول إلى أسرار الكون والطبيعة والإنسان فهناك أمور الغيب لاتدخل في اختصاص العلماء في المعامل، ولكنها تدخل في علم الله وحده: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ الأنعام (٥٩).

والتفسير العلمي للقرآن يجب ألا يعتمد إلا على حقائق ثابتة، ولايقحم هذه الحقائق في غير موضعها، ولايتجاهل أو يستبعد كتب التفسير السابقة ويرجع إليها بعد استبعاد الخرافات والإسرائيليات منها، ومراعاة ألا يتعارض تفسير آية مع تفسير آية أخرى، وفي النهاية ليس الهدف الوصول إلى الحقائق والقوانين العلمية من القرآن..

لأن القرآن ليس كتابا فى الجغرافيا أو الفلك أو العلوم الطبيعية أو الكيمياء.. القرآن كتاب هداية للبشر إلى الله.. كتاب فيه الأوامر والنواهى التى تحقق حياة طيبة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة وتجعل علاقات البشر فيما بينهم قائمة على أساس روحى وأخلاقى.. وهو كتاب يحدد الحرام والحلال.. وكل ما فيه من إشارات إلى قوانين وحقائق الكون جاءت لتدعو المؤمنين به إلى البحث العلمى.. وتزيد اليقين والإيمان فى قلوبهم.. وترد على المنكرين بالحجة والدليل..

وإذا كان بعض العلماء عندما يتعمقون فى المعرفة يجدون الله أمامهم.. ويرون بأعينهم عظمة الخالق الذى أنشأ هذا الكون العجيب، ووضع فيه هذا النظام المذهل.. فهل نقول لهم: اسكتوا.. ولا تنطقوا بالحقيقة الكبرى التى وصلتم إليها؟..

المعجزة فى الإنسان .. والنملة !

منهج التفسير العلمى للقرآن هو منهج القرآن. وكان العقاد يقول: إن العلم الذى أمر به القرآن هو كل ما يدركه الإنسان من معرفة بالنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله فى هذا الكون:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأعراف الآية: ١٨٥).و﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية : ١٧– ٢٠)

و﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾(البقرة: ١٦٤).

فالعلم فى الإسلام – كما يقول العقاد – يتناول كل موجود، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يُعلَم، فهذا العلم ليس مقصورا على ما يتصل بأداء الفرائض والشعائر، ولكنه أكثر عموما من ذلك، لأن العلم فى

عمومه وشموله أعم من عبادة الصلاة والصيام، بل إن العلم هو خير عبادة، لأن الإنسان يهتدى به إلى سر الله فى خلقه ويعرف حقائق الوجود فى نفسه ومن حوله. ولهذا قال النبىﷺ «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء» وقال: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» وحين ذُكر أمام الرسول رجلان أحدهما عابد والآخر عالم قال: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» ويعود بنا العقاد إلى الكثير من الأحاديث كما جاءت فى كتاب جامع الأصول لعبد الرحمن ابن على لمن يريد المزيد.. وهذا غير الأحاديث التى وردت فى فضل المعرفة، وفريضة العلم على كل مسلم ومسلمة، وقد مرت بالأمم الإسلامية عصور متخلفة جهلت فيها الإسلام نفسه، فجهلت فضل العلم كما جهلت فضل الدين، ولكن الإسلام لم يخل تاريخه من مجتهدين استمدوا حرية الفكر من هذا الينبوع، وأوجبوا على المسلم أن يتعلم حيث وجد العلم، فكل معرفة صحيحة هى معرفة قرآنية إسلامية.

ورأى العقاد أيضا أن العلوم العصرية عرفت باسم العلوم الأوربية يوم كانت أوربا كلها حربا على العالم الإسلامى بغاراتها على بلاده، وإذلالها شعوبه، ومع ذلك لم يظهر من المسلمين عداء لكل ما يأتى من المستعمرين الطامعين من علوم حديثة، ولكنهم أقبلوا على علوم الغرب وتنبه المسلمون مبكرا إلى خطورة التسرع فى تفسير القرآن بنظريات علمية لم تثبت صحتها ، مثل النظرية السديمية مثلا، التى يفسر بها البعض آية الدخان ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ (سورة

فصلت آية١١)، والنظرية السديمية خلاصتها أن المنظومة الشمسية نشأت من السديم، أى من مادة غازية ملتهبة، بردت، وتجمدت، وخرجت من جرمها الكبير أجزاء كثيرة تفرقت، فدارت حول نفسها وحول الجرم الكبير بفعل الجاذبية والحركة المركزية،وأن نشأة النجوم فى السماء مماثلة لهذه النشأة، وهذه الفكرة شائعة ولكنها -كما يقول العقاد - ليست قاطعة. وهناك فروض أخرى لدى العلماء لم يتوصلوا فيها بعد إلى رأى قاطع، وفى مثل هذه الحالات التى لم يحسم فيها العلماء الخلافات من فروض متعددة يرى العقاد أنه لا حرج أن يأخذ بها البعض، بشرط ألا يلزم غيره بالفروض التى يستند إليها فى تفسير الآية ويعتبرها من دعائم الإيمان بالقرآن، لأنه قد تظهر فيما بعد أدلة ترجح النظرية السديمية أو ترجح نظرية أخرى من النظريات الموجودة الآن، فمن يفسر آية بنظرية لم يتأكد فيها اليقين عليه أن يذكر ذلك صراحة على أن تفسيره مجرد فرض إلى أن يثبت صحته أو خطؤه، ويختلف ذلك عمن يفسر آية بحقيقة علمية ثابتة تتأكد صحتها كل يوم ولم تعد موضعا لإعادة نظر.

❑ ❑ ❑

والدكتور عبد الرزاق نوفل كان من أوائل المجتهدين فى التفسير العلمى للقرآن، وكان كتابه «الله والعلم الحديث» قنبلة تفجرت فى عقول المفسرين التقليديين وفتحت أمامهم آفاقا جديدة لفهم القرآن، وكما قال الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر فى ذلك الوقت فى مقدمته، فإن عبد الرزاق نوفل أثبت بالعلوم الحديثة أن العلم والدين لا يختلفان ولا يتناقضان، وأن العلم يخدم الدين ويؤيده ولا يعارضه

﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ (الرعد : ١١) ورحب الشيخ حسن مأمون بهذا المنهج الذى يأتى بالآية وبما أثبته العلم والعلماء، ومن المقارنة يظهر صدق الآية وصدق كل ما أرادت أن تلفت العقول إليه.. وهذا المنهج هو الأنسب فى العصر لمحاربة موجة الإلحاد والتشكيك وزلزلة العقيدة، والإسلام منذ ظهوره له أعداء يشككون فى ثوابته وأولها القرآن.. ويشير عبد الرزاق نوفل إلى عبارة لعالم الفلك الكبير فى القرن الثامن عشر «هرشل» قال فيها: «كلما اتسع نطاق العلوم كثرت الأدلة على وجود حكمة، خالقة، قادرة، مطلقة، وما علماء الطبيعة، والكيمياء، والفلك، إلا بناة لمعابد العلوم التى يسبحون فيها للخالق العظيم»!

ومن الطبيعى أن كل من يدرك مدى الدقة فى حركة الأجرام والكواكب ويصل إلى معرفة تكوين الكون، لابد أن يشعر بالرهبة، والانبهار، ويشعر بوجود قوة تفوق قدرة البشر على إدراكها، هى التى خلقت كل هذه المعجزات.. ومثال ذلك البروفيسور أ. ج كرونين الذى بدأ حياته ملحدا، إلى أن نظر إلى الكون فأصاب عقله وفكره زلزال عظيم عبر عنه بقوله: «إن تأملنا الكون وأسراره وعجائبه، ونظامه ودقته، وضخامته وروعته، فلابد أن يفكر فى إله خالق، من ذا الذى يتطلع إلى السماء فى ليلة صيف صافية، ويرى النجوم اللانهائية تتألق بعيدا، ثم لا يؤمن بأن الكون كله لا يمكن أن يكون وليد المصادفة

العمياء وعالمنا هذا وهو يدور فى الفضاء فى حركة دقيقة منظمة، وفصول متتابعة، لا يمكن أن يكون مجرد كرة من المادة، خالية من الدلالة، نزعت من الشمس، وألقيت فى الفضاء بلا معنى أو سبب»!

نفس المعنى عبر عنه عالم آخر هو أرثر كومتبوت الحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء حين قال: «فى معملى لا أسعى إلى إثبات حقيقة الحياة بعد الموت، ولكنى أصادف كل يوم قوى عاقلة، تجعلنى أحس إزاءها أحيانا أنه يجب علىّ أن أركع احتراما لها».

والنظر فى خلق الإنسان ذاته يقود إلى الإيمان بالله قطعا.

فالإنسان يتكون فى البداية من خلية واحدة، وهذه الخلية تكون العظام وهى مادة صلبة، والغضاريف وهى مادة نصف صلبة، واللحم وهو مادة رخوة، وهى نفسها تكون الأنسجة وهى لزجة، والدم وهو سائل، وتكون أيضا طبقات الجلد الرقيقة جدا، وأهداب العين وهى دقيقة جدا، وهذه الخلية الواحدة يتكون منها أيضا السمع، والبصر، والإحساس أو الشعور أو الفؤاد، وينشأ منها إنسان قصير أو طويل، أبيض أو أسود.. هذه الخلية المعقدة اكتشف العلماء مكوناتها وتحليل مادتها وطريقة انقسامها، ولكنهم عجزوا عن تفسير اللحظة التى تدب فيها الحياة.. اللحظة التى تدب فيها الروح.. وليس هناك عالم لا يقف حائرا عاجزا أمام الروح.. لأن الروح من أمر ربى!

ويكفى أن ينظر العلماء إلى الجنين كيف يتغذى فى بطن أمه، وكيف يتنفس، وكيف يقضى حاجته ويتخلص من فضلاته، بل وكيف تعلق فى الرحم، أو كيف ارتبط بأمه بالحبل السرى الذى يتغذى

منه، إذا فكر العلماء فى ذلك كله فلا يملكون إلا أن يسلموا بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨).

وعندما يبلغ الحمل نهايته تفرز الأنثى إفرازات؛ منها ما يسهل عملية انزلاق الجنين، ومنها ما يعمل على مساعدة المولود على أن يكون نزوله بالوضع الطبيعى، وعقب الولادة يفرز الثدى سائلا أبيض مائلا للاصفرار، ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقى الطفل من الإصابة بالأمراض وتعطيه حصانة طبيعية، وفى اليوم التالى للميلاد يبدأ اللبن فى التكوين، ومن تدبير الخالق أن يزداد مقدار اللبن فى ثدى الأم يوما بعد يوم حتى يصل بعد سنة إلى حوالى لترين ونصف اللتر فى اليوم، بينما لا تزيد كميته فى الأيام الأولى على بضعة جرامات، وهكذا يتبين معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨). بل إن تركيب اللبن ذاته تتغير نسب مكوناته وتركز مواده، ففى البداية يكاد يكون ماء به قليل من النشويات والسكريات، ثم تزيد نسبة النشويات والسكريات والدهون فيه تدريجيا بما يوافق احتياج جسم الرضيع وقدرته على الهضم والتمثيل الغذائى، ويلزم لعملية النمو لكل مرحلة.. فهل يمكن أن يكون هذا التدبير المحكم بغير مدبر؟

❑ ❑ ❑

وهكذا لو تتبعنا مراحل نشأة الإنسان منذ كان نطفة حتى يصير رجلا أو امرأة، سنجد أن معجزات الخلق والخالق ظاهرة فى كل جزء

فيه، ابتداء من تركيب الثدى الذى يرضع منه وهو طفل، إلى نظام الأسنان التى تنمو فى فمه والتى تختلف من قواطع فى وسط الفم لقطع الطعام، إلى جانبها أنياب للمعاونة فى تمزيقه، ثم الضروس لطحن الطعام، ومع تقدم الطب والتكنولوجيا لم يستطع العلماء أن يبتكروا نظاما أفضل للإنسان، ولم يجدوا إلا أن يقلدوها عند صناعة أطقم الأسنان الصناعية.. معجزات كثيرة تفوق الحصر داخل جسم الإنسان - وتأمل عملية الهضم.. ووظائف الكبد التى يقول العلماء إننا إذا أردنا إنشاء مصنع لتنقية الجسم من السموم والمواد الكيماوية، وإفراز مواد لهضم المواد الدهنية، وتصنيع مادة الكولسترول اللازمة للجسم، واختزان كمية من السكريات لإفرازها وقت الحاجة.. لو أردنا إنشاء مصنع للقيام بكل هذه الوظائف فسيكون هذا المصنع على مساحة لا تقل عن فدانين.. ونفس المعجزة فى الكلى.. هذا الجزء الصغير الذى يقوم بوظائف خطيرة ويكفى أن تشاهد حجم ماكينات غسيل الكلى الصناعية التى تستعمل لمرضى الفشل الكلوى لترى إلى أى حد بلغ الإعجاز فى خلق هذا الجزء الصغير من جسم الإنسان.

ولم يعرف العلماء إلا منذ أربعين عاما تقريبا وظائف الغدد الصماء، ووجدوا أنها معامل صغيرة تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية، تبلغ قوتها إلى الحد الذى يجعل أقل قدر منها له آثار خطيرة على الإنسان، وهى مرتبة ترتيبا مذهلا، وإفراز كل غدة يكمل إفراز غدة أخرى، وبينها توازن غاية فى الدقة، وإذا اختل التوازن الهرمونى تظهر أمراض خطيرة.. ولم يعرف العلماء مثلا إلا مؤخرا أن الغدة النخامية والغدتين فوق الكليتين إنما هما مخازن ذخيرة تعمل وتنشط عند الحاجة ووظيفتها الأساسية حفظ التوازن الكيماوى

والحيوى فى الجسم.. وعندما يكون الإنسان فى جو بارد تفرز هذه الغدد إفرازات تسبب ضيق الأوعية الدموية فيرتفع ضغط الدم، ويتغلب الجسم على برودة الجو، ويشعر بالدفء الداخلى الناتج عن ارتفاع ضغط الدم.. وفى حالات الجروح الخطيرة تعمل هذه الغدد - بالعكس - على خفض الدم وسرعة تجلطه لإيقاف نزيف الدم، وعند الانفعالات النفسية والتوتر والقلق تعمل هذه الغدد على خفض ضغط الدم لتخفيف آثار هذه الحالة النفسية على بقية أجزاء الجسم.

ثم تأمل وظائف المعدة،والأمعاء،والمخ وهو أعقد جهاز مازال العلماء حائرين فى فك طلاسمه، وجهاز المناعة الذى يقف بالمرصاد لحماية الجسم من الميكروبات ويهاجمها.. والدورة الدموية.. والقلب.. ثم المعجزة فى أن أجهزة الجسم مخلوقة بقدرة على التكيف والتعويض إلى أن يشاء الله.. فإذا استؤصلت كلية من الجسم تبدأ الكلية الأخرى فى التضخم لتعوض النقص الذى طرأ.. وإذا استؤصل نصف الغدة الدرقية زاد حجم النصف الباقى، وإذا أصاب القلب مرض فى صماماته يقلل من قدرته، يزداد سمك جدرانه شيئا فشيئا وتقوى عضلات القلب، ويزداد حجم القلب فى محاولة لإصلاح الخلل، ودلت التجارب على أن بالجسم أجزاء يمكن الاستغناء عن جزء منها إذا أصيب بمرض، فيمكن استئصال جزء من الأمعاء حتى سبعة أمتار دون أن يؤثر ذلك على حياة الإنسان فكأنها «احتياطى استراتيجى» لإنقاذ الإنسان وقت اللزوم.

وعبد الرزاق نوفل يتابع فى دراساته معجزات الخلق والخالق فى كل جزء من أجزاء جسم الإنسان.. الجلد.. حاسة السمع.. الإبصار..

الشم.. العظام.. الجهاز العصبى.. الغدد اللمفاوية.. العضلات..فى كل منها معجزات تفوق التصور.. وفى كل منها نعمة من نعم الله على الإنسان ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (سورة إبراهيم: ٣٤) ثم يتابع المعجزات فى خلق الحشرات والطيور والحيوانات.. وهى قبائل وأنواع. من الغراب.. إلى الضفدعة.. والأخطبوط.. والسمك.. والخفاش.. والسحالى.. والجمال.. ومعجزة تكون اللبن فى جسم الحيوانات.. وصدق الله العظيم:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ (النحل: ٦٦) وهكذا وهكذا..

كلما نظرت فوقك فى السماء لتتأمل هذا الكون العجيب وما فيه أو تنظر إلى نفسك وما فى جسمك وأحوالك.. أو تنظر حولك فى الماء أو الهواء أو النبات والحيوان والحشرات..ستجد معجزات فوق قدرة العقل.. ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (لقمان: ١١).

ويستمر عبد الرزاق نوفل فى رحلته مع الخلق والخالق ليتوقف عند تناسل الإنسان والحيوان والحشرات، ليفسر قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ (الشمس: ٧ -٨) وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾ (يس: ٣٦).. وكيف خلق الله فى الأم عاطفة الأمومة فى كل الأحياء تجدها فى الحيوان كما تجدها

فى الإنسان، بحيث تتحمل الأم الآلام وتضحى من أجل صغارها براحتها وبحياتها أحيانا.. فمن الذى علم الدببة والقطط والكلاب أن تحمل أولادها بأنيابها الحادة وتعدو بها مسافات شاسعة لإنقاذها وحمايتها دون أن تخدش جلدها..؟ ومن علم الخفاش أن يطير وهو يحمل أولاده الصغار معلقة به وهو ينوء بحملها ولا يضعها إلا حين يطمئن إلى مكان آمن..؟ ومن الذى علم حيوان الكنجارو أن يحمل وليده فى كيس بطنه ويقفز به فى مناطق الخطر..؟ ومن علم الحيوان والطير كيف يغذى صغاره..؟ ومن علم الطير أن يهاجر بحثا عن الدفء أو الغذاء أو هربا من خطر يهددها، والأغرب من ذلك كيف تهتدى هذه القوافل من الطيور المهاجرة إلى موطنها فتعود إليه بغير خرائط أو سابق معرفة بالطريق..؟

وهل فكرت مثلا كيف تحولت البيضة إلى كتكوت ؟

أو ماذا يفعل النحل لحفظ الهواء داخل الخلية عند درجة حرارة ثابتة والتهوية بالقدر الذى يلزم لنمو اليرقات.. عندما تجند طائفة من النحل نفسها للقيام بهذه المهمة.. بعضها يقوم بإجهاد عضلاته لتوليد الحرارة فى أبدانه ويشع الحرارة فى الخلية، وبعضها يجثم على الأرض ويحرك أجنحته بسرعة محددة كأنها مراوح كهربائية لتهوية الخلية، فتكون مكيفة الهواء والحرارة.. وكل ذلك للحفاظ على حياة المواليد الصغيرة التى تموت إذا زادت أو نقصت الحرارة عن درجة معينة.

❑❑❑

وفى النمل معجزات تفوق الخيال، جعلت عالما مثل «رويال ديكنسون» أحد علماء التاريخ الطبيعى يقول فى كتابه «شخصية الحشرات»: «لقد ظللت أدرس مدينة النمل عشرين عاما فى بقاع مختلفة من العالم، فوجدت أن كل شىء يحدث فى هذه المدينة فى دقة بالغة، وتعاون عجيب، ونظام يفوق ما نراه فى مدن البشر، علاوة على الهدوء والسكون.. وراقبت النمل وهو يرعى أبقارا عبارة عن خنافس صغيرة رباها النمل فى جوف الأرض زمنا طويلا حتى فقدت بصرها من حياة الظلام، ولا أحد يعرف فى أى عصر بدأ النمل رعى هذه الأبقار، وكل ما نعلمه أن الإنسان سخر نحوا من عشرين حيوانا لمنافعة، بينما سخر النمل مئات الأجناس من حيوانات أدنى منه فى الجنس، مثل بق النبات، وهى حشرة يصعب استئصالها، وفى الربيع يرسل النمل مجموعات تجمع له بيض هذا البق وتضعه فى المستعمرة وتعنى به حتى يفقس وتخرج صغاره، وعندما تكبر تدر سائلا حلوا يقوم على حلبة جماعة من النمل لا عمل لها إلا حلب هذه الحشرات بمسها بقرونها، وتنتج كل حشرة ٤٨ قطرة من العسل كل يوم، أى بمقدار يزيد على مائة ضعف ما تنتجه البقرة للإنسان بمقياس حجم الحشرة إلى حجم البقرة.

ويزرع النمل زراعات خاصة به، ويقول «رويالب ديكنسون»: إنه وجد جماعة من النمل زرعت مساحة بلغت ١٥ مترا مربعا من الأرض، ووجد جماعة منها تقوم بالحرث، وبعضها زرع الأرز، وبعضها كان يزيل الأعشاب، وبعضها يقوم بأعمال الحراسة لحماية الزراعة من الديدان، ولما بلغت عيدان الأرز تمام نموها كان يرى صفا

من شغالة النمل لا ينقطع، يتجه إلى العيدان، فيتسلقها حتى يصل إلى حبوب الأرز، فتنزع كل نملة حبة أرز واحدة، وتنزل بها سريعة إلى مخازن تحت الأرض، وقام العالم بطلاء بعض النمل بألوان مميزة، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائما إلى العود الواحد، حتى يفرغ ما عليه من الأرز.

والأغرب من ذلك أن هذا العالم ظل يراقب النمل ويدرس أحواله، إلى أن نزل المطر أياما، وبعد أن انقطع نزول المطر، وجد بيوت النمل تحت الأرض مزدحمة بالعمل والعمال، ووجد كل نملة تخرج من البيت تحمل حبة أرز، وتذهب بها إلى مكان معرض للشمس وتضع الحبة لتجف من ماء المطر.. وبعد ساعات عادت الشغالة لتحمل الأرز إلى مخازنه تحت الأرض بعد أن اطمأنت إلى جفافه..

فمن ألهم هذه الكائنات أن تفعل كل هذا..؟هل هى الطبيعة؟ هل هى المصادفة؟ هل يتحقق ذلك النظام الدقيق فى الكون وفى الكائنات عشوائيا؟ أو هناك خالق مدبر غاية فى الحكمة وغاية فى القدرة.. ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

❑ ❑ ❑

ولو تصورنا أن الإنسان لم يخلق وفيه القدرة على الكلام، وفهم الكلام، كيف سيكون حاله؟. كيف كان يمكن أن يعيش البشر بدون القدرة على المخاطبة والتفاهم؟. من فضل الله أن جعل الإنسان قادرا على التعبير باللغة واللسان.. وبذلك ينقل لغيره ما فى فكره وما يشعر

به، ويعبر عن الفرح والحزن، أو الألم، أو يطلق نداء الاستغاثة.. وحتى الحيوان أثبت العلم أن له لغة خاصة للتفاهم.. الدجاجة تصدر أصواتا مميزة فترى صغارها تقبل إليها بسرعة تلتقط الحب.. وتصدر أصواتًا مخالفة فترى الصغار تهرول إلى العش.. وكثير من العلماء راقب سلوك الحيوان واكتشف أن له لغة خاصة.. والنحلة إذا عثرت على حقل به زهور عادت إلى الخلية وتقف وسط زميلاتها وترقص رقصا خاصا، فيندفع النحل ويطير خلفها إلى هذا الحقل..

وكتب عالم الحشرات «افيرى» أنه أراد أن يمتحن عقل النمل، فوجد نملة خارجة وحدها من الحجر، فوضع فى طريقها ذبابة لصقها على قطعة فلين بدبوس، فوقفت النملة تعالج الذبابة بفمها وأرجلها مدة عشرين دقيقة، ولما عجزت، ذهبت إلى الجحر، وبعد ثوان، خرجت تتقدم ١٢ نملة من أخواتها، وقفوا جميعا يمزقون الذبابة، وعادت كل نملة وهى تحمل جزءا منها، كيف أخبرت النملة زميلاتها بأنها وجدت طعاما وتحتاج إلى مساعدة..؟

يقول علماء الحشرات: إن صرصار الغيط يصدر صوتا فى الليالى الدافئة فى الحدائق والمزارع يدعو به أنثاه إذا بعدت عنه، وكذلك نقيق الضفادع ليلا، وأسراب الفيلة لا تكف عن الغمغمة وهى تسير فى جماعات، فإذا تفرقت وسار كل فيل وحده انقطع الصوت وسار الفيل صامتا.. وأحيانا تجتمع الفيلة لتحاكم فيلا ارتكب مخالفة، فتصدر أصواتا مزعجة أقرب إلى الخناقة، وفجأة تنتهى هذه الأصوات ويخرج الفيل المحكوم عليه ليعيش وحيدا وقد حكمت عليه الجماعة بالطرد..

وأصوات الغراب المميزة إشارة إلى خطر يحذر منه أبنـاء جنسـه، وفـى أوقات المرح يصدر منه صوت مختلف، ويقـول «أكلانـد» العـالم الـذى أعد دراسة مطولة عن سلوك الغراب: إن الغراب يفـوق الطيـور الأكـبر منه فى الحجم والأقوى منه بسـبب مكـره، وهـو لـص، وفيـه صفـات الخسة والدناءة، وقبل أن تنام الغربان تجدها فى محادثة طويلـة ذات ضوضاء مع جيرانها.. ولاحظ العلماء أن لكل غـراب مخزنًـا سريًا قـد يكون ثغرة فى شجرة، أو تحت سقف برج قديم، أو خلف حجـر فـى كوبرى، وجدوا فى أحد هذه المخازن السرية قطعة من مـرآة مكسـورة، ويد فنجان، وقطعة صفيح، وأشياء أخرى تتفق فى شيء واحـد، إنـها تتألق فى الشمس..

والحشرات أيضا لها لغات.. العنكبوت مثلا يتحـدث إلى أنثـاه مـن خلال خيوطه، فيقف الذكـر علـى طـرف الشـبكة ويجذبـها، فتخـرج الأنثـى لاسـتقباله أو تـرد عليـه بـأن تجـذب هـى الخيـوط، فكأنـهما يتبادلان حديثا سلكيا خاصا.! وقد أصـدر العـالم الروسـى «فرولـوف» كتابا عنوانه «سمك يستجيب للتليفون» ذكر فيه أنه وضع فـى المعمـل حوضا به مجموعـة مـن الأسمـاك وربطـها إلى سـلك كـهربائى خفيـف طويل، فيستطيع السمك أن يسبح كما يشاء، وكان كلما أجـرى التيـار الكهربائى فى السلك يصاحبه بجرس يدق فينتفض السـمك مـن تأثـير الكـهرباء، وبعـد عـدة مـرات دق الجـرس فقـط دون إطـلاق التيـار الكـهربائى فـانتفض السـمك.. وهـذا مـا أطلـق عليـه العـالم الروسـى «بافلوف» بعـد ذلـك الفعـل المنعكـس الشـرطى، بعـد أن قـام بتجربـة مماثلة مع الكلاب.. وأثبتت تجارب العلمـاء أن السـمك يسـمع ويميـز

الأصوات ويستجيب لها.. وبعض الحيوانات تفهم لغة الإنسان وتستجيب لها.. كما يدعو الإنسان الدجاج إلى الغذاء بصوت معروف.. ويدعو البط والأوز بصوت مختلف.. ويدعو الدواب إلى الشراب بالصفير.. والكلب ينفذ أوامر صاحبه..

والنوم معجزة.. وهو أهم للحياة من الطعام والشراب.. ووجد العلماء أن الكلاب لا تستطيع أن تعيش أكثر من خمسة أيام دون نوم بينما عاشت عشرين يوما بدون طعام، وكل الحيوانات تنام.. ووجد العلماء أن الحيوانات تحلم أثناء النوم، وبعض الحيوانات تقوم من نومها فزعة تتلفت فى كل الاتجاهات، مما يدل على أنها رأت حلما مخيفا، والأسماك والحشرات أيضا تنام.. والطير ينام على أغصان الشجر دون أن يقع.. والحصان ينام واقفا.. ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الروم : ٢٣) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (غافر: ٦١).

رحلة طويلة سار فيها الدكتور عبد الرزاق نوفل مع كتاب الله ليكتشف معجزات الخلق والخالق.. ووضع فى عشرين كتابًا خلاصة ما وصل إليه، ويلخصه قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾ (الرعد :١٦) . . و﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾(التغابن: ٣

و﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّ

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل: ٦٨)..

و﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾(التين: ٤).. وكثير

الآيات لا يمكن فهم أبعادها إلا فى ضوء العلوم الحديثة، وكثير

الحقائق التى توصل إليها العلماء أخيرا لها إشارات فى القرآن.

كتاب الله المفتوح

فى العصور الوسطى كانت الكنيسة فى أوربا تعتبر محاولات العلماء للتفكير فى الكون جريمة وكفرا، ولذلك عذبت كوبرنيكس لأنه فكر فى موقع الشمس من الكون، وحاكمت جاليليو - مخترع التلسكوب - لأنه قال إن الأرض تدور حول نفسها، وقتلوا عالم الطبيعة برونو حرقا لأنه فكر فى تعدد العوالم..

وكل من حاول تشريح جسم الإنسان أمرت الكنيسة بعقابه بالموت.. بتهمة محاولة اختلاس سر الحياة ومنازعة الله فى سر الروح.. وهكذا ظل العداء قائما بين رجال الدين والباباوات من جهة، والعلم والعلماء من جهة أخرى، وفى القرن الثامن عشر ضعف سلطان الكنيسة، وبدأ سلطان العلم يقوى، وتفجرت الثورة العلمية والثورة الصناعية.. وانقلب العلماء على رجال الدين وعلى الدين أيضا، لأنهم وجدوا أن رجال الدين يقفون عقبة أمام تقدم العلم فتصوروا أن الدين ذاته هو العدو للعلم والعلماء، حتى قال بيكون: إن الدين يعتبر سدا يمنع التقدم، وقيدا يجب كسره، وصنما من الضرورى تحطيمه.. وبدأت موجة الإلحاد وإنكار وجود الله.. والإيمان بالعلم.. وبالعقل.. فقط لا غير.. وظهر عباقرة ملحدون شاركوا فى نهضة العلم والفلسفة ولكنهم خسروا نعمة الإيمان.. أمثال هيوم.. جون ستيوارت مل.. الدوس هكسلى.. برتراند راسل.. ثم جاء الفكر الماركسى ليزيد الطين بلة فينشر النظرية المادية ويعتبر الدين أفيون الشعوب..

قبل هذه المرحلة كانت هناك مرحلة أخرى.. اختلطت فيها الخرافات بالعلم وبالدين.. كان العلم مختلطا بالسحر والشعوذة، وكان الدين مختلطا بالسجود للشمس والقمر والكواكب وعبادة الأصنام..

وجاء الإسلام ليرفع شأن العلم والعلماء.. ويوجه الإنسان إلى النظر فى الكون وكل مافيه، فهذا الكون هو كتاب الله المفتوح، وهو المعجزة الكبرى التى ستظل البشرية فى محاولات لمعرفة أسراره إلى يوم القيامة.. وجاء فى القرآن أكثر من ٨٠٠ آية تشير إلى حقائق كونية لم يكشف العلم عنها إلا فى السنوات الأخيرة بعد وصول الإنسان للقمر، ومعرفة تكوين الذرة، والنسبية، والجاذبية، وكروية الأرض، وتعدد الشموس والأقمار، وحركة الأرض، ونشأة الكون وتمدده وانشقاق القمر وتكور الشمس.. حقائق مذهلة لم تكن تخطر على بال أحد فى العصر الذى نزل فيه القرآن..

ما معنى ذلك ؟..

معناه أولا: أن هذا الكون وهذه الحياة وراءها نظام عجيب، وتدبير مذهل، وقوانين لاتتغير، ولا يمكن أن يكون ذلك قد حدث مصادفة، وكيف تكون هذه الحياة مصادفة وتكوين أصغر جزء فيها معجزة فوق العقل..؟ والدكتور منصور حسب النبى يأخذ بيدنا لندرك عظمة الخالق.. الجزئ البروتينى هو أصغر شئ حتى إن الميكروسكوب يعجز عن رصده، ومع ذلك فإن عدد الذرات فى الجزئ البروتينى الواحد ٤٠ ألف ذرة، محصورة فى خمسة أنواع من ذرات عناصر: الكربون، والأيدروجين والنيتروجين، والأوكسجين، والكبريت. بينما عدد

العناصر الكيميائية فى الطبيعة ٩٢ عنصرا، وقد حاول العلماء أن يستخدموا نظرية الاحتمالات ليصلوا إلى أن اجتماع هذه العناصر الخمسة لتكوين الجزئ البروتينى جاء بالمصادفة، وحسب الفترة الزمنية اللازمة لاجتماع هذه الذرات فى ترتيب معين فوجدوا أن المصادفة تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين.. كل ذلك إذا تصورنا أن هذا الجزئ البروتينى الصغير جدا الذى لاتستطيع أن تراه بالميكروسكوب وهو جزئ ميت ليس فيه حياة جاء وليد المصادفة.. فكيف إذا تصورنا أن المصادفة هى التى كونت البروتوبلازم وهو أدنى صورة من صور الحياة، وكيف إذا قلنا إن المصادفة هى التى جعلت النباتات المختلفة بهذه الصورة المعقدة.. وكيف إذا فكرنا فى تكوين الحيوان.. والإنسان.. من أين كل هذه المعجزات؟..

لا يمكن أن تبحث عن أى جانب من جوانب الحياة إلا وترى قدرة الله أمامك.. سوف يقف عقلك إذا لم تقل إن الله هو الذى خلق هذا الجزئ البروتينى، وهو الذى جمع هذه الجزيئات بالبلايين لخلق الكائنات الحية من النبات والحيوان.. وكلما تعمقت فى البحث العلمى فى الكون والإنسان لن تستطيع أن تفهم كل ما فيه من أسرار ومعجزات إلا إذا وقفت أمام القدرة الإلهية وسلمت بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ النحل (٤٠) وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الروم٢٧، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ الزمر٦٢.

الحياة لا يمكن أن تكون قد نشأت بالمصادفة..

والمعجزة فى الإنسان فوق العقل ....

❑ ❑ ❑

خلايا جسم الإنسان دائمة الانقسام، هذا الانقسام يعوض الخلايا التى تموت، وتضيف خلايا أخرى على ذلك لكى ينمو جسم الإنسان فى مراحل النمو، ولكن الخلايا العصبية لا تنقسم..

لماذا ؟

لأنها لو انقسمت سوف يزيد عددها.. وتتجدد.. وبذلك تتلاشى الذاكرة فى الخلايا العصبية فى المخ ويحتاج الإنسان إلى أن يتعلم من جديد كل المعلومات التى تعلمها من قبل وتصبح حياة الإنسان العقلية مهددة باستمرار، كما لو أنك دمرت «الهارد دسكت» فى الكمبيوتر ووضعت مكانه ذاكرة جديدة، فإنك تكون قد فقدت كل ما سبق تخزينه فى الذاكرة الأولى.

وعضلات الإنسان.. كل عضلة لها وظيفة.. وهى مكونة بطريقة تجعلها قادرة على القيام بهذه الوظيفة.. أقوى العضلات هى عضلات الرحم فى الأنثى.. لماذا؟.. لأنها هى التى تدفع الجنين للخروج من بطن أمه.. وتليها فى القوة عضلة القلب.. لماذا؟.. لأنها تعمل ليل نهار طُوَال العمر الذى قد يطول إلى مائة سنة بلا انقطاع لتدفع الدم إلى الأوعية الدموية.. ولو توقفت لحظة يموت الإنسان..

وكل خلية حية تتكون من مادة عجيبة هى «البروتوبلازم» وداخل هذه المادة أجسام تحمل كل العوامل الوراثية هى «الكروموسومات»

وعدد هذه الكروموسومات ثابت فى كل أنواع الحيوانات والنباتات.. وفى خلية الإنسان ٤٦ كروموسوما.. وعندما تنقسم كل خلية من خلايا أجسامنا إلى خليتين، فإن كل خلية منهما لابد أن تحتوى على العدد نفسه وهو ٤٦ كروموسوما، ولو اختل هذا العدد لن يصبح الإنسان إنسانا ولكنه سيكون شيئا آخر.. ولكن الأمر يختلف فى الخلايا التناسلية، فعندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين الحيوان المنوى فى الذكر، والبويضة فى الأنثى، فإن عدد الكروموسومات الناتجة فى كل خلية تناسلية تصبح نصف هذا العدد، أى ٢٣ كروموسوما فقط، وعندما يلتقى الحيوان المنوى بالبويضة تتكون أول خلية فى جسم الجنين، وتنضم الكروموسومات فيعود العدد الأصلى ٤٦ كروموسوما فى هذه الخلية وما بعدها.. والمعدة فى الإنسان أعظم معمل كيمائى ينتج تلقائيا مواد كيمائية أكثر مما ينتجه أى معمل من صنع الإنسان، فهى تقوم تلقائيا بتحليل أنواع الطعام المختلفة، وتقوم بتصنيعها، وتجهيزها، وتقوم بتوريدها إلى كل خلية من خلايا الجسم، وهى بلايين الخلايا، بحسب احتياج هذه الخلايا، وتخصصاتها.. لتكوين العظام.. والأظافر.. واللحم.. والشعر. والعينين.. الخ.. وفى المعدة فوق ذلك جهاز مناعى عجيب لمهاجمة الجراثيم..

والأذن.. عضو معقد.. وشديد الحساسية.. تقوم بتحليل الموجات الصوتية بمنتهى الدقة إلى مكوناتها، وتنقلها إلى المخ، فى صورة تيار كهربائى يسرى فى العصب السمعى إلى مركز خاص فى المخ، فيشعر الإنسان بكل صوت من حفيف الشجر،إلى همس الحبيب، إلى قصف الرعد.. هذه الأذن البشرية لاتستجيب إلا لمدى معين من الذبذبات يتراوح عددها – أى ترددها – من٢٠ إلى ٢٠ ألف ذبذبة فى الثانية

الواحدة.. ولايسمع الإنسان الموجات الصوتية إذا كانت ذبذباتها أقل من ٢٠ ذبذبة فى الثانية الواحدة ولا يسمع الأصوات إذا زادت على ٢٠ ألف ذبذبة.. لكى ينعم بالهدوء.. ولو كان الإنسان يستطيع أن يسمع ما هو أقل وأكثر من هذه الحدود لأصبحت حياته ضوضاء وضجيجا لاينقطع على مدار الساعة..!

والعين.. فيها عدسة تقوم بتكوين صورة على الشبكية بمساعدة عضلات العين التى تنظم تلقائيا انحناء العدسة.. وتتغير انحناءات العدسة حسب بعد أو قرب المنظر.. وينفذ الضوء للعين من بقعة صغيرة فى مقدمة العين هى القرنية، وبين القرنية والعدسة حائط فيه ثقب هو حدقة العين هذه الحدقة تتسع وتضيق تلقائيا تبعا لشدة الضوء الذى تتعرض له العين، فإذا كان الضوء قويا تضيق العدسةلتمنع نفاذ الوهج الشديد الذى يسبب الأضرار بالشبكية، وإذا كان الضوء ضعيفا تتسع الحدقة ليدخل منها ضوء أكثر يساعد العين على الرؤية.. والشبكية التى تستقبل صورة الأشياء التى تراها مكونة من عدة طبقات وكلها فى سمك ورقة السيجارة، والطبقة الداخلية للشبكية تتكون من أعواد ومخروطات عددها يصل إلى ١٢٥ مليون عود وسبعة ملايين مخروط، كلها منظمة فى تناسق، ويقول العلماء: إن هذه الأعواد حساسة للضوء الأبيض، والشعيرات المخروطية ثلاثة أنواع، كل نوع منها متخصص فى إدراك ألوان معينة.. مثل الأحمر والأخضر والأزرق وهكذا.. وخلف الشبكية خيوط دقيقة جدا جدا عددها حوالى مليون، هى أعصاب لنقل الصورة من العين إلى مركز الإبصار فى المخ.. والعين البشرية لاتستجيب إلا لمدى معين من الأمواج الضوئية يسمونها «الضوء المرئى»

لأن هناك ضوءا غير مرئى لاتراه العين، مثل أمواج الراديو، والرادار، والأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية، والأشعة السينية، وأشعة جاما..

العين مثل الكاميرا.. عدسة الكاميرا تمثل عدسة العين.. والفتحة تمثل الحدقة.. والفيلم الحساس يمثل الشبكية.. الكاميرا لا يمكن تصور وجودها بدون مصنع يصنعها.. فمن الذى صنع العين؟..

ومن الذى صنع بقية أجزاء الإنسان جزءا جزءا بما فيه من تعقيدات ودقة؟!

ومن الذى صنع سائر المخلوقات؟ وكم عددها فى البر والبحر والجو؟!..

ومن الذى صنع النباتات بكل أنواعها؟

ملايين الكائنات الحية.. كل منها له تركيب خارجى وداخلى خاص وتعمل أعضاؤه بتوافق عجيب..

العلماء توصلوا إلى معرفة الكثير عن التركيب المادى لجسم الإنسان بعناصره ومركباته بالتحليل الكيمائى.. ولكنهم وقفوا عاجزين أمام معرفة سر الحياة..

من أين هذه الحياة التى تجعل الكائن يتحرك ويشعر وتجعل الإنسان يفكر.. ويفرح.. ويحزن.. ويكفر أو يؤمن.. ويحب أو يكره.. ويصدق أو يكذب.. ويخلق أو ينافق..؟

هنا يتوقف الدكتور منصور حسب النبى - مثلى ومثلك - عاجزا.. ولا يجد ما يقوله إلا قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء (٨٥) ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لكان العلماء قد توصلوا إلى سر الروح، ولكن هذا التحدى من الله باق ومستمر إلى يوم القيامة.

ويقف بنا الدكتور منصور حسب النبى وقفة طويلة ليتأمل كل كلمة من كلماته تعالى فى سورة الحج (٧٣-٧٤) : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحج (٧٣-٧٤).

أنصحك أن تعيد قراءة هذه الآية كلمة كلمة.. أنصحك أن تحاول أن تفهمها.. ولو فهمتها لتغيرت حياتك.. لأنك ستصبح على يقين من أن أى إنسان فى الأرض مهما بلغت قوته، ومهما بلغت سلطته وسطوته، ومهما بلغت قدراته، عاجز عن أن يخلق ذبابة، وأكثر من ذلك، إذا أخذت منه الذبابة شيئا لايستطيع أن يستعيده منها.. فأنت ضعيف.. والذى تظن أنه قوى وقادر هو أيضا ضعيف.. والقوى هو الله..هو الوحيد القوى..وهو أقوى من كل قوى.. وهو الوحيد القادر، وقدرته ليس لها حدود، إذا أراد شيئا أنْ يقول له كن فيكون.

بعد ذلك هل لديك من شك فى أن العلم هو أقرب طريق إلى الإيمان..؟

وللدكتور حسب النبى بحث جميل عن الدقة العجيبة فى النظام الذى اكتشفه العلماء فى كوكب الأرض، وأن كل شئ فيها بمقدار دقيق، فنحن على سطح الأرض أشبه بركاب سفينة فضاء، تدور فى الفضاء الكونى، وفى هذا الفضاء الكونى آلاف الملايين من المجرات، ولاتمثل الأرض إلا جزءا ضئيلا جدا من هذا الكون.. فالشمس نجم، وفى الكون مثلها كثير فى حجمها وأكبر منها.. وفى المجموعة الشمسية ٩ كواكب هى: عطارد، والزهرة، والأرض، والمريخ، والمشترى، وزحل، وأورانوس، ونيبتون، وبلوتو، وحول كل كوكب من هذه الكواكب تدور أقمار، وكل ذلك يمثل المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية كلها لاتمثل إلا حبة رمل فى صحراء الكون الواسعة.

ولأن الإنسان خلق ليعيش على الأرض، فإن كل شئ فى الأرض خلق بمنتهى الدقة ليكون مناسبا لحياة الإنسان، شمسنا ليست كالشموس الأخرى، فهناك شموس كبيرة عملاقة، وهناك شموس صغيرة كالأقزام، أما شمسنا فهى نجم متوسط الحجم، ولذلك فإن الحرارة الصادرة منه مناسبة تماما للحياة على الأرض.. ولو كانت الأرض أصغر مما هى عليه فإن النتيجة أنها لن تستطيع الاحتفاظ بالغلاف المائى الذى يحيط بها، وتصبح درجة الحرارة فيها قاتلة للحياة، و لو كانت أكبر مما هى فإن الجاذبية الأرضية ستزيد،

والضغط الجوى أيضا سوف يزيد فلا تستقيم الحياة على سطح الأرض.. والمسافة بين الأرض والشمس محسوبة بدقة بالغة، فهى تبلغ ٩٣ مليون ميل، وهذه المسافة ثابتة منذ آلاف الملايين من السنين، ولو كانت المسافة بين الأرض والشمس أقل من ذلك ماذا يحدث..؟ تنقص كمية الحرارة على الأرض، وتدور الأرض حول الشمس فى وقت أطول، فيطول الشتاء، وتتجمد الكائنات، ولو كانت المسافة بين الأرض والشمس أقل ماذا يحدث..؟ تزيد الحرارة، وتزيد سرعة دوران الأرض حول الشمس، فالأرض تدور حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة، ولو استغرقت وقتا أطول فى الدوران حول نفسها سيكون النهار طويلا والليل قصيرا، ولو دارت فى وقت أقصر سيصبح النهار قصيرا والليل طويلا، وإذا زادت سرعة دوران الأرض عما هى عليه يؤدى ذلك إلى تفكك الأرض وتناثر أجزائها، وآخر ما وصل إليه العلماء أن مدة دوران الأرض الحالية حول نفسها تساعد على التوزيع المنتظم العادل للمياه والرياح على سطح الأرض، وميل محور دوران الأرض هو الذى يسبب الفصول الأربعة.. والحكمة من تتابع الفصول زيادة مساحة الجزء الصالح لحياة الإنسان والحيوان، ويؤدى إلى اختلاف أنواع النباتات.

والأرض محاطة بغلاف جوى من الهواء، وارتفاع هذا الغلاف حوالى ألف كيلومتر عن سطح الأرض، وهذه الكثافة هى التى تمنع آلاف الشهب القاتلة، وتمنع الإشعاعات المدمرة من الوصول إلى سطح الأرض، وهذا الغلاف الجوى هو الذى يحفظ درجة الحرارة.. وهو الذى يحمل بخار الماء من المحيطات إلى حيث ينزل المطر.. هذا الهواء يتكون من غازات أساسية بنسبة محددة وثابتة.. الأكسجين

خمس حجم الهواء، والنيتروجين أربعة أخماس الحجم، والكائنات الحية لايمكن أن تعيش بدون الأكسجين، والاحتراق لا يمكن أن يتم بدون الأكسجين وهذا يعنى أن استهلاك الأكسجين على الأرض كبير، ومع ذلك فإن نسبة الأكسجين كما هى ثابتة منذ آلاف الملايين من السنين، وذلك بفضل نظام دقيق يقوم فيه النبات بامتصاص ثانى أكسيد الكربون، وهو غاز سام ويصنع النبات منه الغذاء، ويعطى بدلا منه الأكسجين، ولو زاد الأكسجين يصبح كل ما على الأرض معرضا للاشتعال.. ولو نقص الأكسجين يصبح التنفس صعبا، والاشتعال صعبا، والنيتروجين يتحد مع بعض الأكسجين ويكون أكسيد النيتريك، وهذا الأكسيد يذوب فى ماء المطر ويتحول إلى سماد يجدد خصوبة الأرض.. هل يمكن أن يحدث كل ذلك بالمصادفة ودون عقل يدبر!! وكل شئ عنده بمقدار..؟!

والماء يغطى ثلاثة أرباع سطح الأرض، وهذه الكمية ثابتة لأن الماء الذى تبخر ونقص من مكان يسقط مطرا فى مكان آخر.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ الرعد : ٨ ..

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ النحل : ٣ .

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ الذاريات : ٢٠ .

بين العلم والإيمان

المعجزات فى هذا الكون كثيرة يستحيل على العقل الإنسانى الإحاطة بها على سبيل الحصر، مما يؤكد قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ (ابراهيم: ٣٤) وتتكشف بعض هذه المعجزات للعلماء يوما بعد يوم وعلى سبيل المثال :

▣ حول الأرض ينتشر مجال مغناطيسى ارتفاعه نصف قطر الأرض، لماذا؟ لأن فى الفضاء الخارجى جسيمات ذرية نشطة وقاتلة، وهذا المجال المغناطيسى يمثل السد المنيع لحماية الأرض من هذه الجسيمات الفتاكة، وحين تقترب من الأرض تدخل فى مصيدة هذا المجال المغناطيسىن فتدور فى أحزمة بعيدة عن سطح الأرض لم يعرفها العلماء إلا حديثا، وأسموها أحزمة «فان ألن» الإشعاعية.. فوجود هذا المجال المغناطيسى بهذا الارتفاع الكبير وراءه حكمة وتدبير.. فهو خط الدفاع الحصين حتى لاتتعرض الحياة على سطح الأرض للخطر.

▣ وتكوين الهواء معجزة.. فهو يتأثر فورا بالحرارة والضغط وهذا يجعله يتحرك بسهولة، وهذه الحركة السهلة هى التى تسبب الرياح والعواصف والأعاصير، وتثير أمواج البحر، وتحمل بخار الماء من البحار والمحيطات وتنقل السحاب الذى يحمل بخار الماء إلى حيث يشاء الله، وتتكاثف وتسقط أمطارا.

▣ والجاذبية الأرضية هى التى أدت إلى احتفاظ الأرض بهذا الهواء لأن الحياة تتوقف على ما فيه من الأكسجين والنتروجين ولولا الجاذبية لتبدد الهواء فى فضاء الكون الواسع... والهواء شفاف لكى يسمح بنفاذ الضوء وتشتيته فيظهر ضوء النهار.. ولولا الهواء لعاشت الأرض فى ظلام تام، وهذا ما رآه رواد الفضاء عندما انطلقوا خارج الغلاف الجوى.. الهواء أيضا هو الوسط الذى ينتقل الصوت من خلاله.. والأكسجين فى الهواء لازم للتنفس، ولازم أيضا لأنه يقوم بامتصاص الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس، وبعد هذا يتحول إلى غاز مطهر يكون طبقة «الأوزون» على ارتفاع ٢٠ كيلومتر من سطح الأرض، وهذه الطبقة هى التى تحمينا من أضرار الأشعة فوق البنفسجية الخطيرة فلا يصل منها إلى الأرض إلا القدر اللازم بالضبط لنمو الحياة دون زيادة أونقصان، ولولا هذا لاختفت الحياة من فوق سطح الأرض.

▣ والبحار مليئة بثروات هائلة.. فى أعماق الأرض وتحت الماء حقول بترول، ورمال مشعة، واللؤلؤ، والماس، بخلاف عشرات الآلاف من أنواع الأسماك، والحيوانات البحرية، والنباتات المائية، والسفن تجرى فى البحار بظاهرة الطفو، وأمواج البحر والمنحدرات المائية يستفيد منها الإنسان فى توليد الكهرباء.. عالم كامل ملئ بالأسرار والمعجزات والعجائب.. كله مسخر لخدمة الإنسان!

▣ والماء يدخل فى تكوين كل الأحياء.. ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ الأنبياء (٣٠) فهو المركب الأساسى للدم، وهو الذى يساعد على امتصاص المواد الغذائية، وهو الذى يختزن الحرارة -يمتص

الحرارة ببطء ويفقدها ببطء- فهو أعظم منظم لدرجات الحرارة على سطح الأرض، والماء شفاف ينفذ منه الضوء فيصل إلى الكائنات والنباتات المائية ويساعدها ذلك على النمو، وللماء قدرة على إذابة جزء من الأكسجين من الجو، وبذلك تستطيع الكائنات المائية أن تتنفس وتعيش تحت الماء، وكل السوائل عندما تتجمد تزداد كثافتها ولكن الماء هو السائل الوحيد الذى تقل كثافته عندما يتجمد، ولذلك حكمة، عندما يشتد البرد تتكون طبقة من الجليد لاتسقط إلى قاع الماء، ولكن تطفو على سطح الماء لتكوّن طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء تحتها عند درجة أقل من درجة التجمد، وبذلك تبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة.

هذا النظام العجيب هل حدث بالمصادفة؟!

❑ ❑ ❑

عندما يتوصل العلماء إلى معرفة هذه الحقائق فإنهم يستطيعون فهم قول الله تعالى فى سورة البقرة آية ١٦٤ :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ العلماء المحدثون يفهمون هذه الآية من سورة البقرة على خلاف ما فهمه المفسرون القدماء.. لأنهم يعلمون الأن حقيقة المعجزات وراء كل كلمة من هذه الكلمات..

العلماء توصلوا إلى وحدانية الله من دراساتهم فى المعامل.. وجدوا أن المادة والطاقة هما أساس الكون، وأثبت اينشتين اندماج المادة والطاقة، والمادة ليست إلا طاقة حبيسة أو معتقلة غير متحررة، المادة موجودة أمامك فى هذه اللحظة و فى الزمان وموجودة فى المكان ولكن يمكن أن تتحول إلى طاقة.. المادة تتحول إلى طاقة، والطاقة تتحول إلى مادة، وكذلك أثبت العلماء اندماج المكان والزمان، واندماج الكهربية والمغناطيسية والجاذبية فى نظرية واحدة هى النظرية النسبية.. نظرية اينشتين قائمة على تفكير وحدوى.. لأنها تربط بين المادة والطاقة، والمكان والزمان، والجاذبية والكهربية فى نظرية واحدة، فالتعدد ينتهى إلى الأصل والأصل هو الوحدة.. لأن الخالق واحد.. ووحدة الخالق هى التفسير الوحيد لما توصل إليه العلماء من وحدة الكون.. جميع العناصر المادية التى نعرفها على الأرض تخضع لنظام واحد يسميه العلماء «القانون الدورى للعناصر».. وجميع العناصر يمكن تحويل بعضها إلى بعض، النحاس قد يتحول إلى ذهب.. الأيدروجين يتحول إلى هليوم.. وغيرها وغيرها..وهذا يحدث فى المفاعلات النووية.. ويحدث فى داخل النجوم، ويدل على وحدة تركيب العناصر.. جميع العناصر تتكون من ذرات.. وكل ذرة فيها نفس الجسيمات الأساسية.. الإليكترون والبروتون.. والنيوترون.. فكل هذا التنوع الذى نراه بعيوننا هو فى الأصل واحد.. وكل طاقة يمكن أن تتحول من صورة إلى أخرى.. الحرارة تتحول إلى حركة.. الحركة تتحول إلى حرارة وكهرباء.. الكهرباء تتحول إلى حركة وحرارة وضوء.. الضوء يتحول إلى كهرباء وطاقة كيميائية مختزنة فى النبات وتتحول هذه الطاقة بالوقود

إلى حرارة وحركة وكهرباء.. تحولات الطاقة كثيرة.. وتوصل العلماء أخيرا إلى أن الكون كله خاضع لقانون واحد.. هو قانون بقاء المادة والطاقة، فكلاهما لايفنى ولكن يتحول إلى صورة أخرى.

❑ ❑ ❑

وعندما يعود رواد الفضاء من كل رحلة يجلبون معهم عينات من الأحجار التى على سطح القمر.. ومن حين لآخر تسقط نيازك وتُلقى قطع من الأحجار من السماء ويقوم العلماء بتحليل هذه الأحجار.. وأثبت التحليل أن خواص الذرات المكونة القادمة من السماء هى نفس خواص الأحجار التى على الأرض.. نفس العناصر فى السماوات والأرض.. ما هى دلالة ذلك.. أليست دليلا على أن ما فى السماء وما فى الأرض من أصل واحد كما قال تعالى: ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ الأنبياء (٣٠) هذه الآية سبقت علم الفيزياء، وعلم الفلك، فى أحدث ما وصلا إليه وهو «وحدة المادة فى الكون» .. فالكون كله كان يتكون من ذرات الايدروجين وهو الغاز الكونى، وبسبب الحرارة العالية والاندماج النووى للذرات تكون الدخان الكونى وفى القرآن إشارة إلى ذلك عن نشأة الكون: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ فصلت (١١).. وتكونت الأرض من الشمس.. وتكون الإنسان من مادة الأرض.. وكل الأحياء من نبات وحيوان وإنسان من مادة الأرض..

❑ ❑ ❑

واكتشف العلماء أخيرا أن كل شئ يتحرك حركة دائرية.. فى الذرة يدور الإلكترون حول النواة.. والأقمار تدور حول الكواكب.. والكواكب تدور حول الشموس.. والشموس (النجوم) تدور حول المجرات.. والطاقة تدور حول مساراتها.. والإلكترون فى كل ذرة فى الكون يدور حول النواة فى سبعة مدارات وكأنها سبع سماوات.. والإنسان يدور حول الكعبة سبعة أشواط أليس فى ذلك ما يدعو إلى التأمل ؟ . .

❑ ❑ ❑

والنجوم التى تراها والتى لا تراها كل نجم هو شمس مثل شمسنا.. بعضها أصغر وبعضها أكبر بكثير من شمسنا.. ولكن كلها لها تكوين واحد.. وخاضعة لنظام واحد.. هذه الشموس عبارة عن أفران ذرية تتكون فيها بالاندماج مادة الكواكب، والأقمار، والشهب، والنيازك، والمذنبات، وفى هذه الأفران تتولد الطاقة بجميع صورها.. فالطاقة على اختلاف صورها لها مصدر واحد فى الكون وتتوقف الحياة فى الكون فى جميع صورها على الطاقة والمادة.. حياة النبات تتوقف على عملية كيميائية سحرية يسميها العلماء التمثيل الضوئى الكلوروفيلى، وفى هذه العملية يمتص النبات الطاقة من الشمس ويخزنها، ويستفيد الإنسان بهذه الطاقة المختزنة.. فيتحول خشب الأشجار الأخضر إلى نار.. أو إلى فحم، أو بترول، أو زيت، أو غيرها من مصادر للطاقة أصلها من النبات، وحياة الحيوان تتوقف على النبات.. وتتوقف حياة الإنسان على النبات والحيوان.

وكل ما فى الكون له دورة مذهلة.. دورة الموت والحياة هى أعظم مثال.. الموت ضرورى للحياة.. كل ميت يتحول إلى عناصر هى ذاتها العناصر التى تتكون منها حياة جديدة.. الأحياء يتنفسون الأكسجين فإذا ماتوا تتحلل أجسامهم ويتحولون إلى غاز ثانى أكسيد الكربون فى الهواء..والنبات يعيش على امتصاص ثانى اكسيد الكربون من الجو ويعطى بدلا منه الاكسجين الذى تحيا عليه أحياء أخرى.. فالموت تحول إلى حياة..والنبات يأخذ من الأرض أو من الجو النيتروجين ويتغذى منه،ويتغذى الحيوان من النبات، فضلات وأجسام النبات والحيوان تتحول فى الأرض إلى رماد وتراب نيتروجينى أونيتروجين يصعد فى الجو، ويتغذى النبات الجديد بنيتروجين التراب أو الجو مرة أخرى.. وهكذا

وحين تدرس دورة الحياة والموت فى الكون تفهم فهما جديدا لقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ الروم (١٩) وحين توصل العلم إلى ما فى الشجر من طاقة استطعنا أن نفهم المعنى المقصود فى المعجزة التى تشير إليها الآية : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ يس (٨٠) وحين نتأمل دورة الموت والحياة فى الكون نجد فيها أوجه الشبه بينها وبين البعث بعد الموت : ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس (٧٨-٧٩).

والدليل على وجود خالق واحد للكون أن هناك وحدة فى الكون ذاته.. وحدة الحياة والمادة والطاقة، ووحدة فى التكوين والصفات فى جميع الكائنات الحية من أدنى درجة فيها وهى الفيروس إلى أعلى درجة وهى الإنسان.. كل الكائنات الحية فيها قدرة على مقاومة عوامل الفناء، ولذلك بقيت جميع الأنواع، حتى فيروس الأنفلونزا وهو أضعف فيروس ويسهل القضاء عليه ولكنه لكى يقاوم الفناء يتشكل بأشكال مختلفة، وكلما اخترع الإنسان دواء للقضاء عليه تغيرت صفاته وتكاثر مرة أخرى.. لذلك لم يتمكن الإنسان من القضاء نهائيا على هذا الفيروس أو غيره من الفيروسات.. والحشرات كلما اخترع الإنسان مبيدات جديدة للقضاء عليها يموت منها الكثير وما يتبقى يكتسب مناعة ضد هذه المبيدات ويتكاثر مرة أخرى.. كل الكائنات فيها خاصية مقاومة عوامل الفناء والانقراض.. ولذلك فكل الأنواع موجودة.. وستظل موجودة إلى أن يشاء الله خالقها..

والإنسان أيضا فيه هذه الخاصية.. وعندما يتعرض للأوبئة أوالحروب ويموت منه أعداد كبيرة يزداد معدل المواليد تلقائيا لتعويض ما فقده.. والإنسان الذى يستأصل إحدى كليتيه يزداد حجم الكلية الثانية تلقائيا وتزداد قدرتها وتؤدى عمل الكليتين.. ومعنى ذلك أن الخالق وضع فى خلقه خاصية حفظ النوع، والتعويض الذاتى، لكى يبقى الكون كما هو فى حالة من التوازن عجيبة.. فإذا تكاثر نوع بأكثر مما يجب هاجمه نوع آخر ليقضى على جزء منه، وإذا نقص نوع ازداد تكاثره ليعوض ما نقص منه، وحتى الإنسان ينطبق عليه قانون التوازن أيضا، فإن الصراع بين البشر، والحروب، والأوبئة، والأمراض القاتلة،

والجريمة، كل ذلك له حكمة.. هى المحافظة على التوازن.. التوازن فى العدد.. والتوازن فى توزيع الناس على الأرض.. والتوازن فى القوة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

❑ ❑ ❑

القدرة على التعويض صفة عامة فى جميع المخلوقات.. تجدها فى الإنسان.. وتجدها فى الحيوان.. وتجدها أيضا فى النبات.. الجمبرى مثلا إذا فقد ساقه تنمو له ساق جديدة.. البرص إذا تعرض للهجوم ينفصل إلى جزئين، الذنب فى ناحية والجسم فى ناحية والجسم الذى ينجو ينمو له ذنب جديد.. والإنسان إذا جرح جزء من جسمه تتكون خلايا جديدة بدلا من الخلايا التالفة ويلتئم الجرح.. وإذا كسرت عظمة من عظامه تنمو خلايا جديدة فيلتئم الكسر.. وكل الكائنات تتنفس.. وكلها تشترك فى أن عملية التنفس تؤدى إلى اتحاد الأكسوجين بالمواد الغذائية فى خلايا الجسم وتنتج الطاقة، ولولا الطاقة لما استطاع أى كائن حى القيام بأى نشاط، وينطبق ذلك حتى على أبسط الكائنات وهى الأميبا التى تتكون من خلية واحدة.. إلى الإنسان وهو أعقد الكائنات ويتكون من عشرات الملايين من الخلايا.. وكل الكائنات تتم فيها عملية التغذية بطريقة واحدة.. من النملة إلى الفيل ومن عود الجرجير إلى شجرة الجميز.. كلها تتحول فيها المواد معقدة التركيب إلى مواد بسيطة التركيب حتى يستطيع الجسم امتصاصها والاستفادة منها.. غذاء النبات يتم فى عملية التمثيل الضوئى وامتصاص الماء والأملاح المعدنية من التربة.. وغذاء الإنسان يتم عن طريق المعدة والهضم وعصارات المعدة.. وكل كائن حى فيه من

الحواس والإدراك على قدر حاجته.. لا أكثر ولا اقل.. وكما أن اللغة هي وسيلة التفاهم بالنسبة للإنسان.. فإن الحيوانات والحشرات لها قدرة على التفاهم بالقدر الذى تحتاج إليه للمحافظة على حياتها.. وانظر إلى سلوك النمل.. أو النحل.. أو الفئران والصراصير أو قطعان الماشية.. أو انظر إلى سلوك الكلاب والقطط. ألا ترى أن بينها نوعًا من التفاهم والاتصال وأن هناك أوجها للشبه مع سلوك الإنسان..ألا ترى أن هناك وحدة فى الوجود.. هل جاءت بالمصادفة أو أن وراءها خالقا خلق كل شئ فأحسن خلقه؟..

❑ ❑ ❑

والعلم يكتشف كل يوم حقائق جديدة من أسرار الكون، وكلما ازداد الإنسان علما يكتشف أنه ما زال يجهل أكثر وأكثر ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥) .. الإنسان منذ بدء الخليقة وحتى اليوم.. وبعد ملايين السنين مازال يقف حائرا وعاجزا عن فهم الكثير من الظواهر فى الكون وفى نفسه.. وسوف يظل هكذا إلى يوم القيامة.

ما الذى يجعل الأرض تدور فى الفضاء ولا تسقط فى فضاء الكون اللانهائى؟ إنه قانون الجاذبية.. هذا القانون موجود فى طبيعة كل الأشياء.. أية كتلتين فى الوجود بينهما قوة جذب، وتزداد قوة الجاذبية بازدياد كل من الكتلتين، وتزداد أيضا قوة الجاذبية كلما اقتربت المسافة وتقل قوة الجاذبية كلما زادت المسافة.. وعندما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية قال «إن الأمر غير المفهوم أن نجد مادة لاحياة فيها ولا إحساس، تشد وتجذب مادة أخرى دون أن يكون

هناك أى رباط بينهما».. وهكذا كل الأشياء يجذب بعضها بعضا.. وهذه الجاذبية هى التى تقوم مقام الأربطة والأسلاك والحبال.. فالشمس تجذب الأرض.. والأرض تجذب القمر وتجذب كل شئ قريب منها.. والإنسان سجين الجاذبية فلايستطيع أن يرتفع عن الأرض لأن الجاذبية الأرضية تشده.. والإنسان أيضا يجذب الأرض إليه مع فارق كبير بين جاذبية الأرض وجاذبية الإنسان نتيجة الفارق الهائل فى حجم كل منهما بالنسبة للآخر.. ورغم هذه الجاذبية فالإنسان قادر على أن يتحرك على الأرض ولاتشده الجاذبية الأرضية فى مكانه كما تشد قطعة المغناطيس المسمار مثلا.. والسبب أن قوة الجذب بين الإنسان والأرض قليلة ومحسوبة بحيث يستطيع الحركة، ولكنه إذا وقف فى مكان عال واختل توازنه يسقط إلى أسفل ولا يرتفع إلى أعلى وكلما ارتفع يعود فيسقط إلى الأرض.. وحين ترفع حجرا تجد أن ذلك يتطلب مجهودا.. وحين تصعد جبلا تشعر بمشقة الصعود لأنك تتحرك ضد الجاذبية الأرضية، وتجد النزول أسهل لأنك تتحرك مع الجاذبية.. والجاذبية الأرضية هى التى جعلت الهواء فى الغلاف الجوى المحيط بالأرض باقيا ولم يتسرب فى فضاء الكون الواسع.. لأن الهواء هو الحياة لكل الكائنات على الأرض.. والجاذبية على الأرض بسيطة، ولكنها فى الفضاء هائلة، لأن الكتل فى الفضاء هائلة..قوة الجاذبية هى القوة غير المرئية التى يعتمد عليها بناء السماء ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الرعد (٢) هذه الأعمدة التى لايراها أحد هى الجاذبية التى اكتشفها الإنسان بعد نزول القرآن بأكثر من ألف سنة.

ولماذا لا يسأل الإنسان نفسه: لماذا لا تقع الأرض على الشمس، أو يقع القمر على الأرض، أو تتجمع الأجرام السماوية بتأثير قوة الجذب المتبادل بينها..؟

هذا سؤال حير العلماء إلى أن وجدوا الإجابة منذ سنوات قليلة، وكانت الإشارة إليها موجودة فى القرآن لم يدركها أحد من المفسرين القدماء، لأن إدراكها يحتاج إلى نظريات وقوانين علمية لم يصل إليها الإنسان إلا مع التقدم العلمى فى العصر الحديث.. والقرآن لكل البشر مهما تكن درجة علمهم.. ولكل العصور..

أينشتين اكتشف أسرار القرآن !

أينشتين له الفضل فى اكتشاف نظريـة النسبية، والدكتـور منصور حسب النبى له الفضل فى اكتشاف إشـارات فـى القرآن إلى الحقـائق العلمية التى تقوم عليها نظرية النسبية.

ونظرية النسبية تناولت قضايا كونيـة أساسـية مثـل اندمـاج المكـان والزمان، واندماج المادة والطاقة، وانحناء المـادة أو الطاقـة عنـد المـرور بـأى مجـال تجـاذبى فـى الكـون.. القرآن أشـار إلى هـذه الحقـائق.. أينشتين أدمـج المكـان والزمـان حـين أعلـن عـام ١٩٠٥ «ليـس لنـا أن نتحدث عن الزمان دون المكان، ولا عن المكان دون الزمان، ومادام كل شىء يتحرك فلابد أن يحمل زمنه معـه، وكلمـا تحـرك الشـىء أسـرع فإن زمنه سينكمش بالنسبة لما حوله من أزمنة مرتبطة بحركات أخـرى أبطأ منه».

وفجر اينشتين بهذه النظريـة قنبلـة فـى نظريـات علمـاء الطبيعـة، وتحققت ظاهرة انكماش الزمن علميـا فـى المعـامل، وشـاهد العلمـاء أن الجسيمات الذرية الدقيقة جدا تطول أعمارها فى نظر مـن يرصدهـا إذا تحركت بسرعة قريبة من سرعة الضـوء، ويقـول أينشـتين: إنـه طبقـا لهذا القانون فإن الساعة تؤخر نصـف ثانيـة كـل سـاعة عندمـا تكـون السرعة ثلاثة آلاف كيلومتر فى الثانية، ويكون التأخير ١٨ ثانيـة كـل ساعة إذا بلغت السرعة ثلاثين ألف كيلو متر فى الثانية، وهكذا يزداد

التأخير كلما زادت السرعة، إلى أن يتوقف الزمن تماما إذا بلغت السرعة سرعة الضوء، على اعتبار أن الضوء هو أعلى سرعة ممكنة، ولكن لماذا لا يلاحظ الإنسان هذا الانكماش فى الزمن؟ لأن حركة الإنسان على الأرض تعتبر حركة كسيحة إذا قورنت بسرعة الضوء.

ولكى نفهم طبيعة العلاقة التى اكتشفها أينشتين فإننا لو ركبنا صاروخا يتحرك بسرعة ٨٠٪ من سرعة الضوء متجهين إلى نجم يبعد عن الأرض ٢٠ سنة ضوئية، فإن هذا الصاروخ يقطع هذه المسافة فى ٢٥ سنة من السنين التى نحسب بها على الأرض، ولكن بالنسبة للمسافر داخل الصاروخ فإن الرحلة تستغرق ١٥ سنة فقط، وحين يعود ركاب هذا الصاروخ إلى الأرض فإنهم يتصورون أنهم أصبحوا أصغر سنا من أبنائهم الذين بقوا على الأرض.. ولو تخيلنا أن سرعة الصاروخ اقتربت جدا من سرعة الضوء، فإن الرحلة التى تستغرق خمسين ألف سنة حسب التوقيت على الأرض يمكن أن تتم فى يوم واحد بالنسبة لراكب الصاروخ.

معنى ذلك أن انكماش الزمن، أو تباطؤ الزمن، قد يخدع الإنسان بأنه يستطيع أن يطوف بأطراف الكون بصاروخ ويعود قبل أن تنتهى حياته، ولكن لو افترضنا أن ذلك حدث فإن هذا الإنسان عندما يعود سيجد أجيالا أخرى، ويجد أن الأرض قد حدثت فيها تغيرات كثيرة، وسوف يكتشف أن زمن هذه الرحلة لم يستغرق سنوات أو عشرات السنين ولكنه استغرق آلاف أو ملايين أو بلايين السنين بالنسبة لأهل الأرض، هذا إذا كانت سرعة الصاروخ قريبة من سرعة

الضوء، ولكى يتحرك الصاروخ بسرعة قريبة من سرعة الضوء فإن الطاقة اللازمة لذلك لا تقل عما يستهلكه سكان الكرة الأرضية جميعا من الطاقة فى سنة واحدة مائة ألف مرة.. وبهذا يمكن أن ندرك أن اختراق الفضاء بهذه السرعة من المستحيلات بالنسبة للإنسان، لأن أى جسم مادى لا يستطيع أن يتحرك بسرعة الضوء إلا إذا كان «فوتون ضوئى» أو «نيوترينو».

❑ ❑ ❑

هذه هى نسبية الزمن كما اكتشفها أينشتين، أما الدكتور منصور حسب النبى فقد اكتشف أن الإشارة إلى انكماش الزمن واضحة فى آيتين فى القرآن. الآية الأولى تشير إلى الملائكة وجبريل، ويقول الله فيها: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ (المعارج: ٤). والآية الثانية فيها إشارة إلى الكون ويقول الله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة: ٥).

ويفسر الآيتين فى ضوء نظرية أينشتين عن النسبية فيقول: إن مقدار الانكماش الزمنى فى الآيتين يدل على أن سرعة العروج كبيرة جدا فى الحالتين؛ وتقترب جدا من سرعة الضوء، ويقف عند اختلاف الانكماش الزمنى فى الرحلتين، فى الأولى اليوم فى الرحلة يساوى خمسين ألف سنة بحساب أهل الأرض، وفى الثانية اليوم فى الرحلة مقداره ألف سنة بحساب البشر، فلماذا اختلف الزمن.. اليوم بخمسين ألف سنة فى الأولى وألف سنة فقط فى الثانية؟ هل هناك

تناقض بين الآيتين؟ ليس هناك تناقض، ونظرية النسبية تقدم لنا الإجابة، وهى أن الانكماش الزمنى يزداد كلما زادت السرعة، ومادام اليوم فى حركة الملائكة وجبريل يساوى خمسين ألف سنة بحسابنا فهذا معناه أن سرعة الحركة بالنسبة للملائكة وجبريل أسرع من حركة الأمور الكونية.

ولا يدعى الدكتور حسب النبى أن هذا هو التفسير الوحيد، أو التفسير الأخير، ولذلك يضع تحفظا يرجع فيه إلى قدرة الله، فيقول إن الله قادر على أن يسيطر على الزمن، قادر أن يقبض مائة سنة من سنوات مخلوقاته فتصير يوما واحدا، وهذه القدرة الإلهية يشير إليها القرآن فى الآية (٢٥٩) من سورة البقرة:

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾.. الله على كل شىء قدير، هو القابض الباسط للزمن.. هو القادر على كسر القانون والنظام الكونى.. بدليل انكماش الزمن بالنسبة للطعام فلم يفسد، بينما سرى الزمن على الحمار فتحول إلى عظام.

الفكرة فى تفسير القرآن فى ضوء القوانين والحقائق العلمية؛ أن هذا التفسير قائم على ما توصل إليه العلم والعلماء، وفى حدود العقل الإنسانى، والرؤية الإنسانية، مع التسليم بأن قدرة الله ليس لها حدود ولذلك لن يصل العقل الإنسانى إلى معرفة يقينية ونهائية بأسرار الخلق والخالق، وكل يوم سوف يتقدم الإنسان خطوة ويزداد علما، وكلما ازداد علما أدرك أن ما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وأن فوق كل ذى علم عليما، وأن الله وحده هو العالم العليم بكل أسرار الكون والخلق ويكشف منها للإنسان ما يشاء بالقدر الذى يناسب حدود العقل الإنسانى فى كل مرحلة من مراحل تقدم العلم والعقل. فلا أحد يدعى بأن ما قيل فى التفسير العلمى للقرآن هو التفسير النهائى أو الكلمة الأخيرة . ولا تزال عبارة شيوخنا القدماء صحيحة «الله أعلم بمراده».

❑ ❑ ❑

ومن المعروف - طبقا لنظرية النسبية - أنه لو وجد كائن له سرعة أكبر من سرعة الضوء فإنه تنمحى أمامه المسافات مهما كان طولها، ويمكنه قطع المسافات الهائلة فى غير زمن.. وهذا يفسر نزول جبريل بالوحى من السماء العلا وصعوده إليها فى غير زمن، فإذا أردنا التفسير بنظرية النسبية نفهم أن سرعة جبريل أكبر من سرعة الضوء، وإذا أردنا أن نستعين بنظرية النسبية لفهم الخوارق، فسنجد أن رحلة الرسول ﷺ فى الإسراء والمعراج يمكن فهمها على هذا الأساس، فسرعة الضوء فى الفراغ أو الهواء هى أعلى سرعة يعرفها العلم طبقا لنظرية أينشتين عن النسبية، ولكن العلم لا ينكر وجود سرعة أكبر من سرعة الضوء فى الفراغ، وإن كان العلم مازال فى مرحلة البحث عن هذه الحقيقة، ولكن العلم وصل إلى حقيقة أن سريان دقائق بيتا فى

الماء أكبر من سرعة الضوء، لأن هذه الدقائق اخترقت حاجز الضوء فى الماء فقط وليس فى الهواء أو الفراغ فتسببت فى صدور إشعاع يسميه علماء الطبيعة إشعاع كيرنكوف.. والملائكة - والله أعلم - تسير بسرعة الضوء أو أسرع منها، وهذه السرعة لا ينكرها العلم الحديث، والمؤمنون من العلماء هم يسلمون بأن قدرة الله بلا حدود.

وأعظم ما قدمه أينشتين فى نظرية النسبية أنه أثبت أن المادة قد تتحول إلى طاقة، وأن الطاقة قد تتحول إلى مادة، وفسر لنا ذلك كيف يمكن أن تظهر الملائكة للأنبياء على هيئة بشر كما تجسد جبريل للسيدة العذراء مريم، ولسيدنا محمد ﷺ على هيئة رجل، وكما قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (مريم: ١٧) وقد توصل العلماء أيضا إلى أن الجسيمات الذرية كلها تتميز بطبيعة ثنائية، فهى جسيمات وموجات فى وقت واحد، وبذلك فليس هناك تناقض بين العلم والدين.

❑ ❑ ❑

لاحظ الدكتور حسب النبى أن القرآن يعبر دائما عن الانتقال فى الفضاء بكلمة عروج، والعروج معناه فى اللغة الصعود والخروج عن الخط المستقيم ، وترى ذلك فى الآيات: ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ ﴾ (المعارج: ٤) و﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(السجدة: ٥) و﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ (الحجر: ١٤)و﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ

وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (سبأ: ٢) واستخدام كلمة ﴿يعرج﴾ و﴿المعارج﴾ يعنى أن السير ليس فى خط مستقيم ولكنه ينحنى فى حركته سواء كان مادة أوطاقة، وهذا ما وصل إليه أينشتين فى نظرية النسبية العامة وانحراف الضوء والمادة.. وقد اتضح للعلماء أخيرا أن الضوء له طبيعة كالموج، وفى نفس الوقت له خاصية جسيمات يسمونها الفوتونات، والضوء قد يتألف من فوتونات مادية ناتجة عن تفاعل المادة المضادة. فأشعة جاما مثلا ناتجة من التقاء اليكترون سالب مع بوزيترون موجب، واثبت العلماء أن الضوء له ضغط وله وزن، ولهذا توقع أينشتين عام ١٩١٦ طبقا للنظرية النسبية العامة أن الضوء مثل المادة ينحنى أثناء مروره فى مجال تجاذبى، وبهذه الحقيقة أمكن فهم أن الحركة فى الفضاء الكونى لاتعرف أبدا الخط المستقيم، وثبت ذلك عمليا فى رحلات الفضاء، فالصعود فى السماء أو السباحة فيها لابد أن تتم تلقائيا فى مسارات منحنية بعضها بيضاوى، وبعضها منفرج، وبعضها شديد الانحناء مثل مسار المذنبات التى تسبح حول الشمس.. وعلماء الفضاء قاموا بإجراء قياسات أيدت صحة انحناء الضوء فى الفضاء الكونى كما قال أينشتين، وبذلك نفهم الآيات التى جاءت فى القرآن لتشير إلى الانتقال فى الفضاء بكلمة «عروج» وليس بكلمة أخرى تفيد السير فى خط مستقيم.

❑ ❑ ❑

أينشتين أفادنا فى معرفة شكل الكون، فقال طبقا لمفهوم الانحناء فى النسبية: إن الكون كله يكون منحنيا، ويتبع تحويرا أو انحناء

ناتجا عن مجموع الأجرام، ولذلك فإن الكون فى نظر أينشتين سطح بالون كروى مقفل.. الكون ليس داخل البالون، ولكن الكون والأجرام تكون سطح البالون، وحسب أينشتين نصف قطر الكون يقدر بحوالى ٣٥ بليون سنة ضوئية، ولم يستبعد فكرة تمدد الكون أو انكماشه، وقد أثبتت الظواهر الفلكية الحديثة صحة النموذج الكروى للكون، وأن تقوس الفضاء متغير مع الزمن، كما لو كان البالون الكونى يتمدد فعلا ويتسع، ويمكن تمثيل المجرات مثل نقط مرسومة على سطح البالون، وعند انتفاخ البالون تتباعد النقط بعضها عن بعض، ويتسع الفضاء بين المجرات دون أن تتمدد المجرات ذاتها، وقد لاحظ العلماء فى قياسات متعددة فى السنوات الأخيرة ظاهرة تباعد المجرات بعضها عن بعض.. وهذا ما نجد إشارة له لم يكن ممكنا لأحد أن يفهمها إلا بعد اكتشاف هذه الحقيقة العلمية التى أثبتها العلماء بالقياسات العلمية الدقيقة.. مما يجعلنا نزداد يقينا بكل كلمة فى القرآن، بعد أن نقرأ ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٧).. الله أقام بناء السماء على اتساع هائل، وهذا التوسع مستمر، ونفهم الآن كيف يحدث ذلك بعد أن وصل العلم إلى ظاهرة تمدد الكون التى أصبحت حقيقة علمية.

ويبدو أن الدكتور حسب النبى بلغت به الدهشة مداها لما وجده من تطابق بين المبادئ الأساسية لنظرية أينشتين عن النسبة - وهى أعظم ما تم اكتشافه فى العلم - وبين الإشارات التى كانت غامضة وغير مفهومة فى القرآن، وكان المفسرون القدامى يكتفون بالمرور عليها بمجرد التفسير اللغوى، أو بالقول: الله أعلم بمراده، ولكن الآن

نستطيع أن نقول إن لدينا أساسا علميا لفهم هذه الإشارات فى القرآن فى ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

ولأن الدكتور حسب النبى نفسه من علماء الطبيعة الكبار، ودارس متعمق لكل أبعاد نظرية أينشتين عن النسبية، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يتساءل: هل قرأ أينشتين القرآن قبل أن يعلن نظريته.. أو أن الرسول ﷺ كان يعرف النسبية وتمدد الكون قبل أينشتين بأكثر من ألف سنة؟ وأين حمرة الخجل على وجوه الذين قالوا ويقولون: إن القرآن من تأليف البشر. وسجل القرآن ادعاءاتهم وافتراءاتهم والوحى ينزل والرسول ﷺ بينهم ليبقى هذا الافتراء خالدا وتظهر كل يوم حقيقة تكذبه..

❑ ❑ ❑

ويتعمق الدكتور حسب النبى فى البحث فى النسبية، بعد أن اكتشف العلماء أن الزمن نسبى، يتوقف على المكان الذى نعيش فيه ونقيس منه الزمن، وعلى ذلك فإن لكل كوكب يومه وعامه الخاص طبقا لسرعة دورانه حول نفسه وحول الشمس، والزمن مرتبط بالحركة أو بالمكان، فإذا أخذنا كواكب المجموعة الشمسية بترتيب بعدها عن الشمس وهى: عطارد، الزهرة، والأرض، والمريخ، والمشترى، وزحل، ويورانوس، ونيبتون، وبلوتو.. نجد أن اليوم فى كل كوكب يختلف عن اليوم فى أى كوكب آخر منها، فاليوم فى الأرض ٢٤ ساعة، ولكن اليوم فى عطارد يساوى ٥٩ يوما من أيامنا على الأرض، واليوم فى الزهرة يساوى ٢٤٣ يوما من أيامنا، بينما اليوم فى المريخ ٢٤

ساعة ونصف الساعة من ساعاتنا، واليوم فى المشترى ١٠ ساعات، واليوم فى زحل ١٠ ساعات، واليوم فى يورانوس ١١ ساعة، واليوم فى نيبتون ١٦ ساعة، أما اليوم فى بلوتو فهو بمقدار ٦ أيام من أيامنا.

وكذلك حساب السنة.. السنة فى عطارد ٨٨ يوما من أيامنا ، وفى الزهرة ٢٢٥ يوما، وفى الأرض ٣٦٥ يوما وربع يوم، وفى المريخ ٦٨٠٧ أيام، وفى المشترى السنة مقدارها ١٢ سنة من سنوات الأرض وفى زحل السنة ٢٩ سنة ونصف السنة، وفى يورانوس السنة ٨٤ سنة، وفى كوكب نيبتون السنة ١٦٥ سنة، وفى كوكب بلوتو السنة ٢٤٨ سنة من السنوات التى نعدها على الأرض.

وعلى هذا لو تصورنا أن طفلين ولدا فى نفس اللحظة أحدهما على الأرض والآخر – فرضا – على كوكب المشترى، فإن الأول يصل إلى سن الستين بحساب الزمن على الأرض، بينما يكون عمر الثانى خمس سنوات من سنوات كوكب المشترى، فالزمن نسبى.. والقرآن يشير إلى نسبية الزمان ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾(الحج: ٤٧) فاليوم عند الله يمثل مرحلة زمنية مختلفة عن المرحلة الزمنية التى يمثلها اليوم بالنسبة لنا، وعلى ذلك نفهم الإشارة إلى خلق الله الكون فى ستة أيام، بما لا يتعارض مع العلم الحديث.. العلم الحديث يقول: إن ذلك استغرق آلاف أو ملايين السنين..والله يقول فى قرآنه:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (ق: ٣٨) ولم يقل ستة أيام مما تعدون.. أى أن حساب هذه الأيام لا يكون حساب

الأيام على الأرض.. ولكن اليوم عند الله لا يعلم مداه إلا هو.. فليس هناك إذن تعارض بين ما يقوله القرآن عن خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما يقوله العلماء من أن المراحل التى يمر بها الكون استغرقت بلايين السنين.

❑ ❑ ❑

ويكتشف الدكتور حسب النبى حقيقة علمية لم يلتفت إليها أحد قبله فى الآية: ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾ (الكهف: ٢٥) ورأى أن هذه إشارة إلى أن ٣٠٠ سنة شمسية تعادل ٣٠٩ سنوات قمرية بالنسبة لسكان الأرض، وبهذا سبقت الآية علوم الفلك، والحسابات الفلكية، ولأن الزمن نسبى فإن الآية تستطرد ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ﴾ (الكهف: ٢٦) إشارة إلى أن عدد السنوات يختلف من مكان لآخر فى هذا الكون المملوء بالحركة، والذى يختلف فيه الزمن باختلاف المكان وباختلاف الراصد والمرصود، ولا يعلم حساب هذه السنين فى كل الأماكن فى الكون إلا الله.. وقد أوضحت النظرية النسبية أنه لا زمان بدون مكان، ولا مكان بدون زمان، وعلى ذلك فإن الماضى والحاضر والمستقبل لاتنطبق إلا فى الإطار الذى نعيش فيه أى على الأرض، أما بالنسبة للأحداث الكونية الفلكية مما نراه فى السماء فى هذه اللحظة لا يعنى أنه حدث الآن، وربما حدث فى الماضى البعيد، وإذا مات نجم فى السماء أو انفجر، فلن يعرف الإنسان ذلك على الأرض إلا برسالة ضوء

تصل إليه ربما بعد آلاف، أو ملايين، أو بلايين السنين بحساب السنين على الأرض.. هذه الرسالة الضوئية تستغرق هذا الزمن الطويل مع أنها بسرعة الضوء الهائلة.

❑ ❑ ❑

وهكذا كلما توصل الإنسان إلى حقائق علمية جديدة فإن ذلك يقوده إلى الإيمان ويجد فى القرآن تصديقا لما وصل إليه، وهذا على عكس مما كان يقال من أن العلم يتعارض مع الدين.. وأن الدين غيبيات فقط ولا يجوز الكلام عنه إلا فى نطاق ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) لأن الدين ليس فيه ما يتفق مع ما نراه ونلمسه وندركه ونصل إليه بالحواس والعلم الذى لا يبحث إلا فيما يدخل فى نطاق المادة وما يمكن إدراكه بالحواس.. الآن نرى أن الدين يقودنا إلى العلم، والعلم يقودنا إلى الدين، لأن الحقيقة واحدة، فى الطبيعة، وفيما وراء الطبيعة، فيما ندركه بالحواس وما ندركه بعد أن نزل به الوحى.. والحقيقة الواحدة والوحيدة هى الله.. خالق العقل والروح والحواس.. خالق الإنسان والكائنات جميعا وخالق المادة وقوانين تحولاتها.. سبحانه.

كيف يقرأ العلماء القرآن..؟

يقول الدكتور منصور حسب النبى: إن الأرض هى الهدية الإلهية للبشر فى المجموعة الشمسية لما يوجد بها من ماء، وهذا الماء هو سبب وجود الحياة على الأرض، لأنه بدون الماء لا حياة لنبات أو حيوان أو إنسان. والعلم يسلم الآن بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ الأنبياء (٣٠)، ولذلك فإن الماء على سطح الأرض فى البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات وفى فجوات الأرض والشقوق والمنخفضات أكبر من مساحة اليابسة.. فالماء يغطى ٧١٪ من سطح كوكب الأرض وبعمق يبلغ فى المتوسط ٣٨٠٠ متر، بينما تبلغ مساحة القارات الخمس ٢٩٪ فقط من سطح الأرض.. ولذلك حكمة إلهية.

الحكمة أن اتساع مساحة الماء يجعل مناخ الأرض ملائما لحياة الإنسان، ولولا ذلك لأصبحت فروق درجات الحرارة على الأرض هائلة بدرجة لاتسمح بوجود الحياة، كما هو الحال فى القمر، فالقمر خال من الماء، ولذلك تصل درجة الحرارة على سطح القمر إلى درجة الغليان فى النهار، وإلى ما تحت الصفر فى الليل، وهذا يجعلنا نفهم الآية: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٨) فوجود الماء محسوب بدقة بالغة.. فلو كان مخزون الماء كله فى المحيطات لأصبح سمك الماء هائلا يزيد ارتفاعه على ثلاثة كيلومترات. ولو لم يكن مخزون الماء

المجمد فى الجليد عند القطب الشمالى والقطب الجنوبى سائلا لارتفع مستوى مياه البحار والمحيطات وأغرق مدنا كثيرة آهلة بالسكان.. لذلك تجد توزيع الماء له حكمة: جزءا على شكل ثلج على قمم الجبال وفى القطبين.. وجزءا فى الأنهار ماء عذب.. وجزءا فى المحيطات ماء مالح.. وجزءا تحت سطح الأرض وجزءا فى السماء على شكل بخار ماء ويتكون منه السحاب.. كل هذا النظام الدقيق فى توزيع الماء لضمان استمرار وجوده بمعايير منضبطة ودقيقة.

ويلفت النظر أن مصبات الأنهار تلتقى بشواطئ البحار ومع ذلك فلا يختلط الماء العذب بالماء المالح، ويظل الانفصال لمسافات طويلة فى البحر وكأن بينهما حدا فاصلا، وفسر العلماء ذلك بأن كثافة الماء العذب مختلفة عن كثافة الماء المالح، وفى القرآن إشارات إلى هذه الظاهرة العلمية التى يسميها العلماء الآن «قوة التوتر السطحى» فى الآية ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان : ٥٣) و﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ ﴾الرحمن(١٩-٢٠) و﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٦١) والبرزخ مقصود به الحد بين الماء العذب والماء المالح وقوة الجاذبية التى تجعل الأنهار تصب فى البحار وليس العكس، والدورة التى تجعل الماء يتبخر بالحرارة ويصبح سحابا ثم تسوقه الرياح إلى حيث يشاء الله فيسقط مطرا ويعود الماء إلى أنهار أخرى، وبذلك

يتحقق التوازن فى الأرض وتستمر دورة الحياة ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف (٥٧) و﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَـٰحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ الروم(٤٦).. ومن المثير أن نجد فى القرآن ما يشير إلى الارتباط بين الشمس ونزول المطر، وهذا الارتباط لم يكن معروفا أيام نزول القرآن: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾ النبأ (١٣-١٤) كذلك لم يكن معروفا العلاقة بين الرياح والمطر قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ (الحجر: ٢٢).

والآن عرف العلماء هذه العلاقات.. عرفوا أن حرارة الشمس هى التى تحول الماء إلى بخار.. وأن الرياح هى التى تلقح السحب كهربائيا، بالجمع بين الكهربية الموجبة، والكهربية السالبة الموجودتين فى السحب، وإحداث التفريغ الكهربى الذى يصحبه برق ورعد، أى أن لفظ «لواقح» يشير إلى عملية تلاقح السحاب كهربيا وهذا لم يصل إليه العلم إلا مؤخرا.. ووجد العلماء أن هناك عملية تلقيح تتم فعلا بين قطيرات وقطيرات أو بين سحاب وسحاب ويؤدى ذلك إلى نزول المطر.. وتبقى دورة الماء على الأرض معجزة من معجزات الخالق.. ومع مرور ملايين السنين فإن توازن المياه وكمياته واستمرار وجوده يؤكد قوله تعالى:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾الحجر(٢١).. وفى البلاد العربية الصحراوية حين يشتد الجفاف ويتأخر نزول المطر وتصبح حياتهم مهددة يلجئون إلى الله فى صلاة الاستسقاء طمعا فى قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ نوح (١٠-١١).

❑ ❑ ❑

ويلفت نظر العلماء الكوارث التى حدثت وتحدث.. بسبب سقوط النيازك من السماء، أو تحطم رؤوس المذنبات الضخمة كما حدث فى كارثة كوكب المشترى عندما تحطم مذنب على سطحه فى يوليو ١٩٩٤، أو عندما تحطم نيزك أو مذنب فى روسيا فى منطقة سيبريا عام ١٩٠٨، ويقول العلماء: إنه حدث فى الماضى عدة مرات سقوط النيازك والمذنبات الضخمة.. وبذلك يمكن فهم القدرة الإلهية إذا أراد أن يخسف الأرض بما عليها، أو يعذب فريقا من الناس إذا بلغ بهم الكفر والطغيان غايته.. حينئذ يكون أمر الله نافذا بإنزال العقاب على الظالمين والجاحدين لنعمة الله.. يأتيهم العذاب من السماء، أو يخسف بهم الأرض، كما أنذرهم الله أكثر من مرة فى كتابه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾(الأنعام: ٦٥) و﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (سبأ: ٩)﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (النحل: ٤٥) ولو درس الإنسان التاريخ لاكتشف أن هناك حضارات زالت..ومجتمعات انهارت..ودولاعظمى انهزمت.. وأقواما بالغوا فى الكفر، والغرور، ثم خسف الله بهم الأرض: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (محمد: ١٠) ، وهذا ما جعل المفسرين يقولون: إن الله يمهل ولا يهمل، وإن الله قد يعطى الكافرين به قوة وعلما فإذا استمروا على كفرهم وطغيانهم أخذهم بغتة.. مثل قوم عاد أرسل الله عليهم ريحا عاتية فجعلهم كأعجاز نخل خاوية.. أو مثل فرعون ومن تبعه أغرقوا: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾(الدخان: ١٣- ١٤)وكما فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأنعام : ٤٤).

❑ ❑ ❑

الكوارث الكونية على الأرض وفى سمائها حدثت وتحدث جيولوجيا وبيولوجيا والزلازل لا تخفى على أحد، ويؤكد علماء الجيولوجيا أن الزلازل كانت فى الماضى ظاهرة تحدث يوميا بسبب الانزلاقات بين طبقات الأرض، وخسوف فى سطحها، وبراكين ثائرة على الدوام، وصدوع طويلة وهائلة، ومن آثار هذه الصدوع شق تونجا

يمتد ١٢٠٠ ميل فى قاع البحر ويمر بنيوزيلندا.. وحديثا تم اكتشاف شق أرضى ضخم آخر فى القشرة الأرضية عمقه ثلاثة آلاف متر واتساعه ٣٠ كيلو متر ويمتد ٦٧ ألف كيلو متر أى ما يعادل ضعف محيط الأرض، يبدأ من ألاسكا ويعبر المحيط الهادى إلى المحيط الهندى، ويدور حول جنوب أفريقيا إلى المحيط الأطلنطى ويتجه إلى المنطقة القطبية، ثم يلتوى فى اتجاهه لينتهى قرب آسيا.. مثل هذا الصدع الهائل هو الذى يشير إليه الله تعالى إنذارا للكافرين بنعمته:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ الطارق (١١-١٧).

وفى التاريخ زلازل مروعة.. فى سنة ١٧٥٥ حدث زلزال فى لشبونة زاد على ٨ درجات بمقياس ريختر واستمر ٨ دقائق وكان عدد القتلى ٥٠ ألف قتيل، وسنة ١٨٧٠ حدث زلزال متقطع استمر ثلاث سنوات حدثت خلالها ٨٦ ألف هزة قاتلة، وزلزال طوكيو سنة ١٩٢٣ وكانت نتيجته هدم نصف مليون بيت و٢٥٠ ألف قتيل و١٠٠ مصاب، وزلزال الصين سنة ١٩٧٦ كان ٧,٨ بمقياس ريختر وعدد القتلى وصل إلى ٢٥٠ ألف قتيل، وزلزال أرمينيا سنة ١٩٨٨ قتل ٢٥ شخصا وهدم آلاف البيوت، وزلزال إيران ١٩٩٠ دفن مدنا بأكملها.

وهناك زلازل أقوى من ذلك تحدث فى قاع البحار والمحيطات تصل شدتها إلى ١٠ درجات بمقياس ريختر وتسبب الغرق المفاجئ للسفن والمدن الساحلية.

والبراكين تثور فى الأرض وفى البحار أيضًا. ومن الكوارث هذه الزلازل التى تفاجئ الناس بغتة والتى عجز العلماء عن التنبؤ بها حتى الآن رغم الحسابات العلمية الحديثة بالقياسات المستمرة للأمواج فوق الصوتية من باطن الأرض ومعدلات تكرارها، وقياسات إزاحة القارات والانطواءات بالقشرة الأرضية باستخدام أشعة الليزر وانعكاسها على الأقمار الصناعية التى ترصدها.. رغم كل الأجهزة الدقيقة والتقدم الهائل فى علوم الجيولوجيا وعلوم الفضاء لايزال الإنسان عاجزا أمام مفاجآت الزلازل: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ (الملك: ١٦).

❑❑❑

ونور النهار الذى نراه كل يوم معجزة من معجزات الله.. هو ضوء الشمس، والقبة السماوية الزرقاء التى نراها هى فى الحقيقة قبة وهمية، تظهر عند الشروق والغروب بلون الشفق الأحمر الذى يتدرج من الأحمر إلى البرتقالى إلى الأصفر ثم الأزرق حسب ارتفاع الشمس.. ونحن على الأرض نعيش فى ضوء الشمس.. ولكن عندما اخترق رواد الفضاء الغلاف الجوى للأرض وجدوا أن المساحة التى ينتشر فيها النور من الغلاف الجوى ٢٠٠ كيلومتر مربع فوق سطح الأرض، وبعد هذا الارتفاع وجدوا السماء فى ظلام تام ودائم، لا ليل، ولا نهار، ليل دائم، رغم وجود الشمس، ولكن ضوء الشمس لايحدث له التشتت الذى يحدث على الأرض، والسبب أن الفضاء ليست فيه ذرات تعكس الضوء وتسبب له التشتت..

رواد الفضاء وهم يسبحون فى الظلام التام خارج الغلاف الجوى يشاهدون الأرض قرصا منيرا يسبح وسط ظلام حالك.. وحين نزل رواد الفضاء على سطح القمر وجدوا سماء القمر مظلمة ظلاما دائما والسبب عدم وجود الغلاف الجوى على سطحه.. وأرسل رواد الفضاء من السفينة أبولو صورا للقمر التقطوها وهم يطوفون حوله، كما أرسلوا صورا للأرض كما تبدو من القمر، فظهر القمر والأرض منيرين بأشعة الشمس المنعكسة عنهما، ولكنهما يسبحان فى سواد حالك.. فالنور فى الأرض والقمر ولكن حولهما ليل دائم.. هذه الحقيقة لم يكن من الممكن أن يصدقها أحد إلى أن شاهدها رواد الفضاء بأعينهم، وصوروها، وأصبح فى مقدورنا الآن أن نفهم قول الله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ النازعات (٢٧-٢٩) ولم يكن ممكنا لأحد أن يفهم كيف أن السماء ليل دائم.. والآن أصبح العلماء على يقين من أن ظلام الفضاء الكونى معجزة أخرى للقرآن.

ومن الطبيعى أن المفسرين القدامى لم يدركوا حقيقة ظلمة السماء فى الفضاء كحقيقة علمية، لأنهم لم يعيشوا عصر الفضاء، ولذلك لم يتصوروا كيف تكون السماء مظلمة رغم أن شمسها طالعة، وكان العلماء يظنون أن نور النهار ممتد إلى أقصى الكون.. ولذلك يمكن أن نقرأ الآيات بفهم جديد الآن مثل قوله تعالى﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ ﴾ (الإسراء: ١٢) ومثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ غافر (٦١).

لذلك يقول الدكتور منصور حسب النبى: نحن نسكن الليل الدائم، لأننا نعيش على ظهر سفينة فضاء إلهية هى كوكب الأرض التى تسبح فى ظلام تام، وأما النهار فهو فقط للإبصار.

ويقول أيضا: الآن على المفسرين أن يحددوا المقصود بالسماء فى كل آية قرآنية.. فالسماء فى قوله تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ القمر (١١) ليست هى سماء الكواكب والنجوم، ولكنها سماء السحاب التى تبعد عنها مسافة أقصاها ١٨ كيلومترا، وأما السماء فى قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾النازعات(٢٧-٢٩) فهى السماء بعد الغلاف الجوى، والتى تسبح فيها الكواكب والأقمار والشمس والنجوم، وتتلألأ جميعها فى هذه السماء دون أن تضئ الفضاء الكونى، فلاتقع العين منها إلا على ليل دائم مظلم، وتصبح هذه الأجرام زينة فقط فى السماء كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾ (الصافات: ٦) وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الحجر: ١٦) فيشير إلى سماء النجوم الأخرى غير الشمس، والتى تشمل فى نظرنا المجموعات النجمية التى تسمى البروج، والتى تتجمع فيها النجوم، رغم ما يفصلها من مسافات شاسعة، وتبدو لنا قريبة من بعضها البعض وكأنها فى مهرجان السماء الصافية فى الفضاء الكونى..

❑ ❑ ❑

وهكذا نجد أنفسنا أمام حقائق علمية مذهلة تضئ أمامنا الطريق لقراءة جديدة للقرآن.. قراءة نفهم فيها الإشارات التى كنا نمر عليها دون أن ندرك حقيقة ما وراءها.. وكان المفسرون القدامى يسلمون بها دون أن يفسروها ويقولون الله أعلم بمراده..

الآن نستطيع أن نفهم بعض هذه الإشارات.. وكلما تقدم العلم استطعنا أن نفهم إشارات أخرى.. بحيث يختلف فهم العلماء للقرآن عن فهم غير العلماء.. ويختلف فهم كل عصر عن العصر السابق عليه.. وكلما ازداد الإنسان علما ازداد إدراكا للإعجاز فى القرآن.. وازداد إيمانا.. وازداد يقينا بأن هذا كلام الله.. ولايمكن أن يكون غير ذلك..

أليس من الواجب ترجمة أبحاث الدكتور منصور حسب النبى إلى اللغات الأجنبية لتكون الوسيلة المناسبة لإقناع الذين لا يقتنعون إلا بحقائق العلم بأن القرآن كتاب الله؟.. وإن كان قد ترك فعلا كتابا باللغة الإنجليزية لكنه ما زال مجهولا ولم يجد هيئة أو جهة تروج له وتوصله إلى من يهمه الأمر فى أنحاء العالم، ولا أعرف هل هذه مهمة وزارة الأوقاف؟.. أو مهمة الأزهر الشريف؟ أو مهمة جامعة الأزهر؟ أو مهمة الهيئات العلمية والدينية فى جميع الدول الإسلامية؟.. ولكنى لا أجد أحدا يتحرك أو يهتم، رغم ما نراه كل يوم من جهود جبارة فى الغرب للتشكيك فى القرآن والإساءة إلى الإسلام ولعل الله أن يهدى من يتقدم بهذه الرسالة..

❑❑❑

رواد الفضاء عادوا بتفسير جديد للقرآن !

كان جاجارين أول رائد فضاء فى التاريخ دار حول الأرض، فى سنة ١٩٦١ وعندما سألوه: ماذا رأيت فى السماء؟ قال: كان الفضاء مظلما رغم بزوغ الشمس فى السماء .

ولأن جاجارين كان ملتزما بتعاليم الحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى الذى اختاره لهذه الرحلة التاريخية، فلم يكن يعلم أن القرآن أشار إلى ظلمة الفضاء الكونى حين خاطب كفار مكة بما اكتشفه جاجارين بعد ذلك يقرون بقوله تعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر: ١٤-١٥).

ولأن جاجارين كان يؤمن بالمادة، ولا يؤمن بالله، فقد وجد فى نفسه الجرأة على إنكار عظمة الخلق والخالق كما شاهدها فى الكون المذهل، وقال بتبجح: «لقد شاهدت الفضاء.. ولم أشاهد الله».. وشاء الله أن يصاب جاجارين بالمرض اللعين فى آخر أيامه ويموت فى حادث طائرة. ويلقى الله وهو كافر رغم أنه كان يجب أن يكون أشد المؤمنين إيمانا لأنه شاهد بعينيه عظمة الله فى هذا الكون الواسع ورأى بعينيه الأرض كرة معلقة فى الفضاء المظلم اللا نهائى.

عند هذه الآية توقف الدكتور منصور حسب النبى ورأى أنها أولا: تشير إلى احتمال غزو الفضاء بعبارة ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، وهذه الإشارة طبعا لم يفهمها أهل مكة ولا من جاء بعدهم، كما أن الآية تشير- ثانيا- إلى حقيقة علمية لم يكن أحد فى مكة ولا فى غيرها فى العالم يعلم عنها شيئا، وهى حالة الظلام الدامس فى الفضاء، ولم يتأكد منها العلماء إلا بعد أن رآها رواد الفضاء بعيونهم، وجاءت شهاداتهم تصديقا لما ذكره القرآن بقوله تعالى:
﴿ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا ﴾.

أكثر من هذا أن القرآن يشير إلى الصعوبات التى سيواجهها الإنسان إذا توغل فى أعماق السماوات:
﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الرحمن: ٣٣-٣٥).. والوصول إلى القمر ليس أصعب رحلات الفضاء، ولكنه-على صعوبته البالغة-يعتبر أسهل رحلةبالنسبة للرحلات الأخرى الأبعد والأصعب.. لأن القمر جرم صغير تابع للأرض، فكأنه ضاحية قريبة من ضواحيها، ولا يبعد إلا ٢٤٠ ألف ميل، وهذا البعد، وإن ظهر لنا هائلا، فانه لا يمثل شيئا بالنسبة لأبعاد أقطار السماوات التى تبعد عنا مسافات خيالية لا يستطيع العقل تصورها.

الآية تشير إلى إمكانية النفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان من الله، ولكن فى الآية تحذير من المصاعب التى ستواجه التعمق فى النفاذ فى الفضاء.. ليست فقط مشاكل انعدام الوزن، وتغير الجاذبية، والإشعاعات الخطيرة المنتشرة فى الفضاء، ومشاكل الطعام والنوم والإجهاد النفسى التى يتعرض لها رائد الفضاء، ولكن هناك صعوبات أخرى أكبر تهدد سفينة الفضاء ورواده مثل :

أولا: احتمال اصطدام سفينة الفضاء بنيزك كبير، وخاصة فى المنطقة بين المريخ والمشترى، وفى هذه المنطقة تنتشر آلاف الكويكبات، وتكون سفينة الفضاء وكأنها باخرة تسير وسط شعاب مرجانية فإذا اصطدمت بأحد هذه النيازك أو الكويكبات فإنها هالكة لا محالة.

ثانيا: فى الفضاء جسيمات صغيرة منتشرة وسرعتها عالية لدرجة تؤدى إلى حدوث ثقوب فى سفينة الفضاء إذا اصطدمت بها بتأثير الحرارة الناتجة من الاصطدام وهذه الثقوب كفيلة بتدمير سفينة الفضاء مهما تكن قوة المواد المصنوعة منها..

ثالثا: فى أرجاء الكون تنتشر الأشعة الكونية، وهى خطيرة جدا على رواد الفضاء، لأنها تحتوى على ذرات مشحونة عالية الطاقة، تتكون من نواة ذرات الأيدروجين، ونواة أخرى أثقل مثل نواة الهليوم والثليوم والكربون والنتروجين والأوكسجين، ونواة من رماد النجوم المتفجرة فيها حديد ونحاس ونيكل، وتتحرك بسرعة تجعلها قادرة على أن تصهر أطنانا من الحديد، فإذا اصطدمت بسفينة الفضاء فإنها تقضى عليها.

رابعا: في علم الطبيعة أن قذف النحاس ببروتونات سريعة ينتج عنه ما يسمى بالبروتون ، وحيث إن البروتونات السريعة والنحاس (شواظ من النار والنحاس) متوافران في الأشعة الكونية، فمعنى ذلك أن رائد الفضاء والسفينة معرضان للزوال والتحول إلى أشعة جاما نتيجة التقاء المادة بالمادة المضادة. وهذه قاعدة يعرفها كل متخصص في علوم الطبيعة النووية، وصدق الله تعالى بقوله: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ الجن (٨) . ولعل هذا ما جعل العلماء بعد الوصول إلى القمر يفضلون إرسال أقمار صناعية وسفن فضاء خالية من البشر لتفادى هذه المخاطر.

❑ ❑ ❑

يتوقف الدكتور منصور حسب النبي عند الآية: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ في سورة النحل (٨) ليقول إن قوله ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ لا يمكن فهمه إلا أنه إشارة إلى جميع وسائل المواصلات الحديثة التي لم تكن معروفة في عصر نزول القرآن. كالسيارات، والبواخر، والطائرات، والصواريخ، وسفن الفضاء، وفي إشارة أخرى إلى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان.. يقول تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(الجاثية: ١٣). ويتوقف أيضا عند قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾(الأنعام: ٦٥) ويقول في تفسير ذلك: إن العذاب من الله لا يقتصر على الكوارث

الطبيعية كالصواعق والبراكين (من فوق) أو الزلازل (من تحت) ولكنها تشمل وسائل من صنع الإنسان كالقنابل، والصواريخ (من فوق) والألغام(من تحت) وفى عبارة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ إشارة إلى كل اختراع مدمر يصيب من فوق؛ من طائرة أو أقمار صناعية، أو ينطلق من تحت؛ عن غواصة أو طوربيد أو غير ذلك.. وكل الاختراعات التى يصل إليها الإنسان يمكن أن تكون نعمة، ويمكن أن تكون نقمة.. فالطاقة الذرية يمكن أن تكون لخير البشرية ويمكن أن تكون لدمارها.. وكذلك أشعة الليزر والأقمار الصناعية والصواريخ.. ألخ ..

❑ ❑ ❑

ويقف الدكتور منصور حسب النبى عند الآية﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد: ٢٥) . . لماذا ذكر الحديد بالذات..؟ لأهمية الحديد فى الصناعات عموما، وفى الصناعات الحربية خصوصا، ولامتيازه دون العناصر الأخرى بأعلى قوة ترابط نووية وأعلى خواص مغناطيسية.. والحضارة الإنسانية والاختراعات فى أدوات السلم والحرب تعتمد غالبا على الحديد.. ويقف أيضا عند الآية: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الانشقاق: ١٨-١٩) ليقول إن فيها إشارة إلى الصاروخ متعدد المراحل من النوع الذى حمل سفن الفضاء إلى القمر عام ١٩٦٩.. ويقف أيضا عند الآية ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ﴾

(فصلت : ٣٧) ليقول إن المدهش إن لفظ «خلقهن» بضمير جمع المؤنث بدلا من ضمير المثنى (الشمس والقمر) ولم يقل «خلقهما» كما تقتضى اللغة، لأن المعنى ليس مقصورا على شمسنا وقمرنا، ونحن الآن نعلم أن الكون فيه شموس وأقمار أخرى لم تكن معروفة او تخطر على بال أحد وقت نزول القرآن.

وشاء الله أن يحمل الإنسان إلى القمر، ويخرج إلى الفضاء الكونى لكى يرى ويلمس النعمة التى أنعم الله بها علينا فى الأرض.. فالقمر الذى نراه جميلا، ويقول فيه الشعراء شعرا، رآه رواد الفضاء ميتا لا جمال ولا روح فيه.. قال أحدهم: «إن سطح القمر يشبه قرص الجبن الرومى يمتلئ بالتجاويف».. وقال آخر: «إنه مكان موحش لا يغرى بالإقامة فيه، وليس كما يتخيله الشعراء». وجاءت نتائج الدراسات بأن القمر جرم ميت ليس فيه ماء، ولا هواء، وليس فيه أى مظهر من مظاهر الحياة، ورأوه يسبح فى الظلام، ولا ينتقل الصوت فى جو القمر لعدم وجود هواء.. فالقمر موحش.. مظلم.. لا تسمع فيه صوتا مهما حاولت الصياح، والإقامة فيه خطر لأنه معرض لهجوم الشهب والنيازك.. ولقلة الجاذبية فى القمر لم يستطع رواد الفضاء التحكم فى خطواتهم فكانوا يقفزون لأن وزنهم ينخفض على سطح القمر إلى السدس.. واليوم فى القمر طويل جدا وتكتوى أى نقطة على سطحه بضوء الشمس أسبوعين كاملين فترتفع درجة الحرارة فيها إلى ١٠٠ درجة مئوية فى النصف المواجه للشمس، بينما تصل درجة الحرارة فى النصف الآخر إلى ١٠٠ درجة تحت الصفر، ولولا الملابس الخاصة لرواد الفضاء لماتوا من الحر والبرد وهلكوا من الإشعاعات القاتلة التى تصل إلى سطح القمر.

أين كل هذا مما نحن فيه من نعمة على الأرض.. بحار واسعة.. وأنهار.. وظلال.. وعيون.. وهواء.. ونباتات.. وحيوانات.. وحياة.. وليل ونهار.. وصيف وشتاء.. ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم: ٣٤) وهذا يدل على أن الأرض خلقها الله وخلق كل ما فيها بمنتهى الدقة لتناسب حياة الإنسان وما يلزم لحياته من نبات وحيوان وماء وهواء ومعادن .

❑❑❑

وعلاقة القمر بالأرض غريبة.. القمر يؤثر على الكرة الأرضية وعلى حركتها فى الفضاء، وهو الذى يسبب ظاهرة المد والجزر فيؤدى إلى رفع مياه البحار والمحيطات، ويحدث المد بسبب جذب القمر لهذا الماء، ويهبط عندما يبتعد عن تأثير جذب القمر فيحدث الجزر، وتتكرر ظاهرة المد والجزر على شواطئ البحار والمحيطات مرة كل يوم من أيام الأرض.. وحديثا توقع العلماء أن عملية المد والجزر ستؤدى فى المستقبل إلى تعطيل الأرض فى دورانها حول نفسها وهذا سيؤدى إلى طول اليوم بمعدل ٢ من الألف من الثانية كل قرن، وهذه الزيادة رغم أنها تبدو ضئيلة جدا ، ولكنها ستتجمع بعد بلايين السنين لتؤدى إلى زيادة طول اليوم على الأرض، وهذا سيؤدى إلى إسراع القمر فى دورانه حول الأرض، ويتسبب حتما فى انشقاقه فى وقت لا يعلمه إلا الله، وتكون هذه من علامات القيامة كما جاء فى الآية: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ (القمر: ١) ويدور القمر حاليا حول الأرض فى مسار دائرى تقريبا نصف قطره ٤٠٠ ألف كيلومتر

فيتأثر بقوة طاردة مركزية تتوازن مع قوة جذب الأرض للقمر، ويتم دورة كاملة حول الأرض بحساب التقويم الهجرى فى ٢٩ يوما و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة و٣,٨ ثانية، وهى المدة التى تمثل طول الشهر العربى، ونحن لا نرى غير وجه واحد للقمر لأنه يدور حول نفسه فى نفس الوقت الذى يدور فيه حول الأرض، ولم يستطع الإنسان رؤية الوجه الآخر للقمر إلابعد غزو الفضاء.. والقمر ليس مضيئا بذاته،ولكنه يعكس أشعة الشمس،أما الشمس فهى تضئ ذاتيا بسبب توهجها وفى هذه الحقيقة إشارات متعددة فى القرآن مثل:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ (يونس: ٥) و﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ ﴾(الشمس : ١-٢) و﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ ﴾ (نوح: ١٥ -١٦) ولم يدرك العلماء إلا مؤخرا أن الشمس هى الأصل وهى السراج المتوهج، وهى مصدر الضياء، أما القمر فهو يعكس ضوء الشمس فيكون للناظرين منيرا بالانعكاس. وهذا هو الفرق بين الضياء والنور، أما عبارة «قدره منازل» فهى إشارة إلى منازل أو أطوار أو أوجه القمر، التى يعرفها علماء الفلك وهى من الظواهر التى نراها كل ليلة بشكل جديد حسب موقع القمر من الأرض والشمس أثناء دورانه حول الأرض.. ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ ﴾ (يس: ٣٩) وفى هذه الاية إشارة إلى منازل القمر وإلى عدم وجود حياة

فيه ، وقد تحقق ذلك بعد أن هبط الإنسان على سطحه وشاهد معالمه المقفرة.

❑ ❑ ❑

يتوقف الدكتور منصور حسب النبى عند الآية فى سورة الكهف ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الكهف: ٢٥) ويحسب طول مدة الشهر القمرى ويصل من الحسابات إلى أن كل٣٠٠سنة ميلادية تساوى٣٠٩سنوات هجرية، وبذلك نفهم دقة الحساب فى الآية.ولم يكن أيام نزول القرآن آلات حاسبة أو كمبيوتر!

ويقدم تفسيرا جديدا للآية(٣٥) فى سورة النور لم يخطر على بال المفسرين فى العصور السابقة. فالآية تقول : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ﴾ فيقول إن المشكاة فى اللغة هى الفجوة المظلمة التى يستخدمها الفلاحون لوضع المصباح فى الجدار، وحيث إن المشكاة مكان مظلم فإنها يمكن أن تكون إشارة للسماء بعد مغادرة الغلاف الجوى، وقد شهد رواد الفضاء السماء حالكة الظلام رغم بزوغ الشمس والنجوم والأقمار والكواكب فيها، لانعدام الهواء والغازات والجسيمات الترابية مما يؤدى إلى عدم تشتت الضوء فى هذا الجو الفضائى، فلا يرى رواد الفضاء النهار رغم وجود الشمس فى السماء، وفى الإشارة لهذه الحقيقة العلمية يقول الله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ (النازعات: ٢٧-٢٩) وأغطش ليلها أى جعل ليل السماء شديد الظلام لأن الضمير فى «ليلها»

راجع إلى السماء. فالإشارة إلى الظلام في السماء، بعكس ما قاله المفسرون، إن الإشارة مقصود بها الظلام على الأرض في الليل.

ونعود إلى آية ٣٥ في سورة النور.. المشكاة المكان المظلم الذى يتسع للمصباح.. والآية تقول:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ المصباح في زجاجة.. هو القمر لأنه كالمصباح المغلف بالزجاج وقد تبين من نتائج تحليل الصخور على سطح القمر أنها تحتوى على نسبة عالية من الزجاج.. والقمر ليس كوكبا ولكنه تابع لكوكب، يبدو كأنه كوكب مضيء، ومصدر الضوء، قال المفسرون إنه شجرة زيتون فوق جبل، وقال الدكتور منصور حسب النبى.. إن هذه الشجرة هى الشمس.. الشمس تتفرع منها جميع أنواع المادة والطاقة في عالمنا فهى شجرة الطاقة.. وهى تشبه الزيتونة في شكلها الكروى، وقرص الشمس يبدو لنا في السماء أملس خاليا من النتوءات، وفى وقت الكسوف يظهر، وقد تفرعت منه عدة ألسنة متوهجة تمتد في الفضاء خارج القرص مسافات كبيرة وكأنها شجرة لها فروع كثيرة.. والشمس ليست في الشرق ولا في

الغرب.. وعندما تظهر لنا فى الشرق صباحا وفى الغرب مساء، فإن ذلك بسبب دوران الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق، أى أن حركة الشمس من الشرق إلى الغرب حركة ظاهرية خادعة غير موجودة مثل ما يحدث عندما تنظر من شباك قطار يجرى بسرعة فترى الأعمدة هى التى تجرى فى الاتجاه المضاد لحركة القطار.. وآخر نتائج الأبحاث كشفت أن الشمس تجرى من الفضاء الكونى فى اتجاه نقطة مجاورة لنجم يسميه العلماء «فيجا» وسرعتها ٤٣ ألف ميل فى الساعة، المهم أن الشمس لا تجرى من الشرق إلى الغرب، أى ليست شرقية ولا غربية، ولكنها تجرى فى الفضاء جريانا حقيقيا وليس ظاهريا، كما اكتشف العلماء بعمليات وأجهزة وحسابات شديدة التعقيد لنرى الإعجاز فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾(يس: ٣٨). فالشمس لها حركة حقيقية، وحركة ظاهرية، الحركة الحقيقية لا نراها على الأرض. وهذه معجزة كبرى من معجزات القرآن لأن العلماء لم يكونوا يتصورون أن الشمس تجرى..

وتفسير الدكتور حسب النبى لآية النور أن الله نور السموات والأرض، ومثل نوره كالشمس المضيئة لنا فى ظلام الفضاء الكونى.. الشمس تضئ دون أن تمسسها نار، وطاقة الشمس تنتج على هيئة إشعاعات تتولد بالاندماج النووى للأيدروجين الموجود فى باطنها، وليس باحتراق مادتها، ولو كانت تحترق لكانت قد انتهت بعد ٤٦٠٠ سنة فقط، بينما يقدر العلماء عمرها بأكثر من خمسة

ملايين سنة. وعلى ذلك فإن الإشارة فى آية النور إلى الشمس «نور على نور» تشير إلى ضوء الشمس الذى ينشأ ذاتيا.. ونور القمر الذى ينشأ من انعكاس ضوء الشمس على صخوره الزجاجية.. ويفرق القرآن بين النور الأصلى والنور المنعكس.. الشمس ضياء.. والقمر نور.. والعلم الحديث يفرق بين ضياء الشمس لأنها نجم تنبعث منه حرارة وضوء. أما القمر فهو جرم بارد ينعكس عليه ضوء من الشمس مثل المرآة..

❑❑❑

مثل هذا التفسير للقرآن يجعلنا نزداد إيمانا ويقينا بأن هذا الكتاب من الله وليس من سواه وليس فى قدرة بشر أن يأتى بمثله .. ويجعلنا نشعر بعظمة الله وبالنعم الكثيرة التى أنعم بها على الإنسان وتفوق الحصر .. ولكنه يجعلنا أيضا نقول إن فهم القرآن لا يحتاج فقط إلى الإلمام بأسرار اللغة العربية ، أو معرفة أسباب النزول فقط، أو الاعتماد على تفسير المفسرين القدامى فقط، ولكن الوصول إلى أعماق المعانى والآيات يحتاج إلى دراسة علوم مثل الفيزياء والفلك والجيولوجيا والتشريح ووظائف الأعضاء وغيرها لكى نفهم الإشارات الدقيقة التى لم تتضح دلالتها إلا بعد الاكتشافات العلمية فى العصر الحديث.

وهذا يجعلنى أسأل: لماذا لا يدرّس تفسير الدكتور منصور حسب النبى فى كليات الأزهر، ولا تقرر كتبه على الطلبة ؟ ولماذا تهمل جامعة الأزهر وهى الجامعة الدينية المتخصصة هذا الباب الجديد الذى يفتح أمام الدعوة الإسلامية مجالات

جديدة لمخاطبة عقول لا تؤمن إلا بالعلم ونتائجه؟ مع أن هذه الدراسة هي التي يمكن أن تسلح خريجي كليات جامعة الأزهر بأسلحة ليست لدى غيرهم، وتجعلهم أقدر على مخاطبة عقول الذين يؤمنون بالعلم وبالمادة ليروا أن قدرة الله ومعجزاته قائمة في داخلنا وحولنا وفوقنا وتحتنا .. وإن كنا لا نستطيع أن نرى الله بأعيننا فإننا نستطيع أن نرى معجزات صنعه في الآفاق وفي أنفسنا .. أليس ذلك أفضل من مناهج الدعوة بالألفاظ البلاغية والعبارات الحماسية ..؟ أليست الدعوة بمخاطبة العقل بالدليل العلمي أقوى أثرًا من الاعتماد فقط على إثارة المشاعر والعواطف ونحن في عصر الثورات العلمية ولسنا في عصر الشعر والبلاغة؟!

حتى النجوم
تولد . . وتموت !

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ صدق الله العظيم (القصص: ٨٨).

حتى النجوم فى السماء، يسرى عليها ما يسرى على الإنسان والحيوان وبقية الكائنات.. ومثل كل الكائنات تمر النجوم بمرحلة الطفولة ثم الشيخوخة.. ثم تموت، وتولد نجوم جديدة لتعيد دورة الحياة.. وحتى الشمس تخضع أيضا لقانون الحياة.. وسوف يأتى يوم تموت هى الأخرى.. وتنطفئ.. وتكون هذه نهاية العالم.

والكون كله ولد ويموت..

والنظرية السائدة بين العلماء تقول إن نشأة الكون حدثت منذ بلايين السنين، فى لحظة، أشبه بلمح البصر . . بانفجار عظيم له دوى أعظم، وبعد هذا الانفجار الأعظم ظلت موجات الطاقة تتطور وتتجسد فى نجوم ومجرات تدور.. هذه النظرية وصل إليها علماء الفيزياء بعد سنوات من الرصد والقياس فى معمل كبير فى كاليفورنيا.

كل نجم من النجوم التى نراها فى السماء يولد عندما تتراكم كميات من الغاز والتراب الكونى البارد، ويتراكم هذا الغاز والتراب من الفضاء الكونى بفعل الجاذبية، ويستمر هذا التراكم لفترة قد تكون عشر سنوات وقد تكون ٥٠٠ مليون سنة حسب كتلة النجم، وبعد ذلك يبدأ

التفاعل داخل النجم، لأن ازدياد التراكم يؤدى إلى تقلص حجم النجم نتيجة ازدياد الجاذبية، فترتفع درجة الحرارة، ويزداد الضغط فى باطن النجم، وترتفع أيضا درجة الحرارة والضغط للغاز عندما ينكمش حجمه، يصبح النجم كرة متوهجة ذاتيا، ويكون ذلك إعلانا عن ميلاد نجم جديد، وتبدأ مرحلة الطفولة.. وفى هذه المرحلة يكون النجم مركبا من الأيدروجين مخلوطا بكمية صغيرة من الهليوم وشوائب بسيطة من العناصر الثقيلة، وعندما يزداد الضغط، وترتفع درجة الحرارة إلى ملايين الدرجات فى باطن النجم يبدأ التفاعل النووى الاندماجى.. ويندمج الأيدروجين مكونا الهليوم، وتنتج الطاقة التى تنطلق من المركز إلى سطح النجم على هيئة أشعة جاما، فيسخن السطح، وتصل درجة حرارته آلاف الدرجات، ويتوهج، وتنطلق منه الطاقة الضوئية المرئية وغير المرئية، وتتحدد بذلك قوة إضاءة النجم ولون السطح، وعندما تتعادل قوة الجاذبية إلى الداخل مع ضغط الحرارة العالية والإشعاع إلى الخارج، ويصبح النجم ثابت الحجم فى الفضاء، لا يزيد ولا ينقص، يكون قد وصل إلى مرحلة الشباب، ويسميها العلماء مرحلة التتابع الرئيسى، وتمتد هذه المرحلة إلى ما شاء الله. وقد تصل مرحلة الشباب للنجم ٢٠ بليون سنة، ووجد العلماء أن ٩٠٪ من نجوم السماء تمر بهذه المرحلة.. ودرجات الحرارة فى النجوم الشابة تختلف من نجم لآخر.. بعض النجوم تصل درجة حرارة السطح فيها ٣ آلاف درجة مئوية، هذه هى النجوم الصغيرة الحمراء، وبعضها الآخر تصل درجة حرارة السطح فيها ٢٥ ألف درجة مئوية وهى النجوم الكبيرة الزرقاء، وبين هذه وتلك توجد نجوم

لها لون أصفر برتقالى، وبعضها لونها أصفر مثل شمسنا، وبعضها لها لون أبيض مائل للاصفرار، أو أبيض مائل للزرقة.

أما شمسنا فهى نجم شاب، درجة حرارته السطحية ٦ آلاف درجة مئوية..

❑❑❑

وحياة النجوم الشابة تدوم بلايين السنين، إلى أن ينتهى الأيدروجين منها، ويتراكم رماد الهليوم فى باطن النجم، وبذلك تقف التفاعلات النووية، فتتغلب قوة الجاذبية، ويتقلص القلب فجأة، وكأن النجم قد أصيب بنوبة قلبية، فترتفع درجة الحرارة إلى مئات الملايين من الدرجات، ويتحول الهليوم بتفاعل نووى جديد إلى عناصر أخرى مثل الكربون، والأكسجين، والمغنسيوم، وتستمر التفاعلات إلى أن يصل التحول إلى عنصر الحديد بالاندماج النووى فى قلب النجم، ويكون الغلاف الخارجى قد تمدد، ويصبح النجم عملاقا أحمر يبتلع كل الكواكب القريبة، وهذا ما سيحدث لشمسنا عندما تصل إلى الشيخوخة.

عندما تصل شمسنا إلى مرحلة الشيخوخة سيصل غلافها السطحى إلى مستوى السحاب فوق رؤوسنا، وتكون هذه ضمن الحوادث المنذرة بالقيامة.. فالشمس قبل موتها سوف تصبح عملاقا أحمر.. وفى السماء الآن نجوم عمالقة حمراء تمثل ١٪ من عدد نجوم السماء.. من بين هذه النجوم العملاقة - كما يقول العلماء - نجم اسمه «نجم منكب الجوزاء» يبعد عنا حوالى ١٦٠٠ سنة ضوئية ويبلغ قطره ٤٦٠ مرة قدر قطر

الشمس، أى أن حجمه مائة مليون مرة حجم الشمس، ولهذا يعتبره العلماء «سوبر».. هناك نجم أحمر آخر.. عملاق.. يسميه العلماء «العيوق»..

مرحلة الشيخوخة للنجم العملاق الأحمر حوالى ١٠٠ مليون سنة.. وتبدأ الشيخوخة حين يتوقف إنتاج الطاقة فى باطنها.. فينكمش النجم العملاق وتتأرجح إضاءته كما يحدث للإنسان عندما يقل جهده وتضطرب خطواته.. وتستمر هذه المرحلة غير المستقرة مليون سنة.. وبعدها ينفجر النجم.. وقد يكون الانفجار هائلا.. وحدث ذلك لنجم اسمه «السوبر نوفا».. وأحيانا لا يمر النجم بمرحلة التذبذب وينكمش على نفسه، ويبدأ عملية موت بطيئة.. تبرد فيها حرارته تدريجيا وكأنه يحتضر.. وخلال فترة تقدر بحوالى بليون سنة يتوقف عن الإشعاع المرئى، وتصدر عنه أمواج غير مرئية تحت الحمراء إلى أن يبرد نهائيا.. ويصبح مجرد جرم بارد فى الفضاء وفى طى النسيان..

هكذا يحكى لنا الدكتور منصور حسب النبى قصة الحياة والموت فى الفضاء الكونى الهائل كما توصلت إليها دراسات وأبحاث العلماء.. ويقول لنا: إن العلماء يتوقعون أن الشمس سوف تتحول فى شيخوختها إلى عملاق أحمر، ثم إلى قزم أبيض قبل موتها، والعلماء بعد كل أبحاثهم التى استغرقت عشرات السنين وصلوا إلى ما ذكره القرآن فى سورة التكوير (١ - ٢) بقوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ ﴾.. فالشمس - كما توصل العلماء أخيرا - سوف تنطوى ثم يلقى بها، وهذا معنى «كورت»

ومعنى «انكدرت» اختفى ضوؤها وهذا معناه الموت.. وفى سورة النجم نقرأ فى أول آية: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾ وهذا يتفق مع آخر حقائق العلم بأن النجم إذا تقلص تسقط مكوناته بالجاذبية ويصبح مجرد قزم، أو ثقب أسود فى السماء.

❑ ❑ ❑

هذه هى رحلة حياة النجوم، وهذه الرحلة تستغرق نظريا حوالى ٢١ بليون سنة بالنسبة للنجوم المتوسطة كالشمس، ومعنى ذلك أن شمسنا بحساب العلماء سوف تظل ساطعة أكثر من ١٠ بلايين سنة فى المستقبل قبل أن تتحول إلى عملاق أحمر، ثم قزم أبيض.. وإذا أراد الله أن يجعل عمرها أطول من ذلك أو أقصر فلن يقف أمام إرادته شئ سبحانه وتعالى.

❑ ❑ ❑

هناك نظرية علمية أخرى حديثة متشائمة.. ومازال العلماء يبحثون حتى الآن مدى صحتها، وقد وقفوا أمام لغز قالوا: إنه لغز «النيوترينو».. قد يوحى بأن شمسنا حاليا أوقفت تفاعلها النووى.. ويقولون: إن دقائق «النيوترينو» لم تعد تصل بالكميات المتوقعة، وهذه الدقائق ناتجة من التفاعل النووى الاندماجى فى باطن الشمس، وهى دقائق تسير بسرعة الضوء ولا تتفاعل مع أية مادة وتخترق الأرض.. لماذا تقل كميات هذه الدقائق؟.. هل توقف التفاعل فى باطن الشمس..؟ لو ثبت ذلك فإن معناه أن الشمس بدأت تدخل مرحلة الشيخوخة وستتحول إلى نجم عملاق أحمر..؟ بعض العلماء المتفائلين

يقولون: إن الشمس بخير.. ومازالت فى شبابها.. وإنها ربما تكون الآن أثناء دورانها حول المجرة تمر بموقع مترب يصطدم بسطحها بكميات كبيرة ويرفع درجة حرارتها، ولهذا أوقفت الفرن الذرى داخلها مؤقتا.. ولكن لا يستطيع أحد حتى الآن أن يقول على وجه الدقة ماذا يجرى فى الشمس.. ولا ما هو السر فى تناقص دقائق «النيوترون» الصادر منها..

❑ ❑ ❑

وللعالم الراحل الدكتور عبد المحسن صالح أبحاث مهمة لم تأخذ حقها من الاهتمام، وهو يقول إن علماء الفلك أصبح فى إمكانهم التنبؤ بالحركة والزمن، ووصلت قدرتهم على التنبؤ إلى منتهى الدقة حتى إننا نعتمد عليهم فى حساب الساعات، وأوقات الصلاة، وأوائل الشهور، وأيام الأعياد، وهم يحسبون لنا كل ذلك مع مراعاة فروق التوقيت من دولة إلى دولة، ومن مدينة إلى مدينة، وهذه القدرة على التنبؤ العلمى ليست لسنة واحدة فقط، بل يمكن حسابها لدى ألف سنة قادمة، وربما مليون أو حتى ألف مليون سنة، وتنبؤات هؤلاء العلماء تشير إلى أن الشمس سوف تبقى ساطعة قائمة خمسة آلاف مليون سنة قادمة، مما يعنى استمرار وجود الأرض وما عليها من حياة.

على أى أساس يقول علماء الفلك ذلك؟

لأن علماء الفلك أصبحت لديهم مراصد جبارة متطورة، ذات عيون فائقة، أقوى من العين البشرية مليون مرة، ولهذا تستطيع أن ترصد وترى وتتعمق فى الكون الضخم لمسافة ١٥ ألف مليون سنة ضوئية

(والسنة الضوئية هى حاصل ضرب عدد الثوانى × السنة الواحدة × سرعة الضوء وتساوى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية - أى أن السنة الضوئية مسافتها ٦ ملايين مليون، ثم اضرب هذا الرقم فى ١٥ ألف مليون سنة تحصل على أرقام كونية لا تتصورها عقولنا). المهم أن علماء الفلك بهذه المناظير الفلكية يرصدون ملايين البلايين من المجرات والنجوم، منها ما يحتضر، ومنها ما يولد، ومنها مازال شابا، والتنبؤ بموت هذه الشموس أو النجوم الضخمة له معادلات وقوانين تتمشى مع نواميس كونية لا خلل فيها.

وكما أن الإنسان لابد أن يهلك مخزونه ويموت إذا منعنا عنه الشراب أياما والطعام شهرا أو شهرين، كذلك الحال مع النجوم، فلكل منها مخزون ضخم جدا من غاز الأيدروجين، تعيش عليه وتستهلكه بمعدلات ثابتة، وبحسابات علماء الفلك فإن عمر شمسنا الشابة فى حدود خمسة بلايين سنة، وفيها رصيد ضخم من الأيدروجين يمكن أن تعيش عليه لمدة خمسة بلايين سنة أخرى ، ثم إن شمسنا من النجوم المتوسطة فى الوزن والحجم، ولابد سيأتى يوم - يعلمه الله -تسرى فيها الشيخوخة، وتستهلك رصيدها، وتبرد، وتتحول إلى نجم عملاق أحمر، هنا يحل الموت بأرضنا تبعا لذلك، لأن حياة الأرض ومن عليها تعتمد على هذه الشمس بما ترسله إلينا من ضوء وحرارة، فإذا انقطع هذا الرصيد من الطاقة، جاءتنا الطامة الكبرى، وتحول كوكبنا إلى كتلة من الجليد تستحيل فيه الحياة!

متى سيأتى هذا اليوم..؟ العلم عند الله.. وقد يكون هذا اليوم قريبا ونحسبه بعيدا..وإرادة الله-فى النهاية-أقوى من قوانين الطبيعة

وحسابات العلماء.. ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢).

وعلماء الفلك أصبحوا الآن يعرفون كتلة الشمس، وحجمها، ومخزونها من الأيدروجين ومقدار استهلاكها منه، فهى مثلا تستهلك فى كل ثانية حوالى أربعة ملايين طن من غاز الأيدروجين، وبذلك يمكن حساب كم تستهلك فى الدقيقة وفى الساعة وفى السنة أو فى مليون سنة، وما استهلكته فى خمسة ملايين سنة حتى الآن.. والباقى من مخزون الأيدروجين فيها الآن يصل إلى ٩٨٪ من الكتلة الحالية لها، ويقول علماء الفلك إن كتلة الشمس فى حدود ٢ بليون بليون طن، وقطرها فى حدود مليون و ٤٠٠ ألف كيلو متر، أى أنها أكبر من أرضنا بحوالى ٣٣٠ ألف مرة.

❑ ❑ ❑

كل هذه الحسابات المعقدة محسوبة بوسائل علمية تساعد على الوصول إليها أجهزة حساسة تسجل ما يجرى فى الشمس، وتقدر عوامل حياتها وموتها.. ومنها يقول علماء الفلك: إنه فى المستقبل البعيد لن يكون اليوم ٢٤ ساعة بحساباتنا الحالية، ولكنه سيصير ٣٦ ساعة، لأن هناك عوامل تؤدى إلى إبطاء سرعة دوران الأرض حول نفسها، وإبطاء الحركة ينعكس على إبطاء الزمن، وبعد ألف سنة سيصبح اليوم أطول من يومنا الحالى بمقدار جزئين اثنين من مائة جزء من الثانية، ومع استمرار هذه الزيادة البسيطة وبعد خمسة آلاف مليون سنة سيصبح اليوم ٣٦ ساعة..

العلماء الذين يتعاملون مع قوانين الكون هم وحدهم الذين يعلمون أنهم أمام أفلاك متقنة، وأزمنة محددة، ودورات منتظمة، ويعلمون أن الزمن هو الحركة، ولولا حركة الأرض ودورانها حول نفسها لما عرفنا شيئا اسمه الزمن، ولا كان هناك ليل ولا نهار، ولاشروق ولاظهر ولا عصر ولاغروب، ولامواعيد ومواقيت للصلاة،والحج، ولافصول للشتاء والصيف، لأننا بدون حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس كنا سنعيش فى ليل وظلام سرمدى أو نهار وضوء سرمدى، وعندئذ لن تكون هناك حياة، ولن يكون للحياة أو للزمن وجود، وهذا ما يجعلنا نفهم معجزة الخلق والخالق فى التوازن الدقيق فى الكون، فكل شىء فى هذا الكون يسرى بحساب، ويجرى بمقدار، وهى معجزة كبرى لايقدر العقل على إدراك أبعادها بسهولة، ولايصل إلى بعض أبعادها إلا العلماء وهم الذين يفهمون عظمة الخالق حين يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (يونس : ٥) و ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ (الإسراء: ١٢).

والعلماء هم أكثر من يدرك يقينا أن كل شىء مقدر تقديرا مذهلا..

❑❑❑

ومن الحسابات المعقدة التى يجريها العلماء على «ميكانيكا» الأجرام السماوية يستطيعون التنبؤ مقدما بعدد مرات الكسوف والخسوف التى ستحدث فى سنة أو فى عشرات السنين، بل فى مئات السنين القادمة، ويمكنهم حساب مواعيد الكسوف والخسوف بالشهر واليوم والساعة والدقيقة والثانية، وتحديد مكان حدوث ذلك، وتقدير الزمن الذى سوف يستغرقه الكسوف أو الخسوف، وهل سيكون كليا أو جزئيا؟.. ومن الذى ستمكنه رؤيته من أهل الأرض.. وهذه التنبؤات من الحقائق العلمية التى تأكدت صحتها، ولم تخطئ أبدا.. لماذا؟.. لأن الكون فيه نظام غاية فى الدقة.. وكل التنبؤات الفلكية التى أعلنها العلماء تحققت بالدقيقة والثانية.. وكمثال لما سيحدث فإن التنبؤ العلمى يقرر أنه سيحدث كسوف للشمس فى عام ٢١٨٦ فى موقع محدد بجنوب المحيط الأطلنطى وسيكون أطول كسوف للشمس لم يحدث مثله منذ مئات السنين، لأنه سوف يستمر سبع دقائق و ٢٨ ثانية فى يوم ١٦ يوليو عام ٢١٨٦ أطال الله فى أعماركم!

هكذا تصل الدقة فى خلق الله وقوانين الكون ليؤمن الناس بأن الله وحده هو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾(الأعلى: ٢-٣)

❑ ❑ ❑

الشىء الذى اتفق العلماء علية هو أن الكون سيتوقف عن التمدد فى المستقبل، ثم ينكمش ويعود كما كان فى مكان الانفجار العظيم فى مركز الكون.. تماما كما جاء فى القرآن فى سورة الأنبياء الآية (١٠٤)

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

كيف يتصور العلماء القيامة؟..

التصور العلمى يقوم على احتمال انكماش الكون، عندما تسيطر الجاذبية العامة على تأثير التمدد، فيتوقف التمدد، ثم يبدأ الكون فى الانكماش.. أينشتين لم يستبعد فكرة تمدد الكون وانكماشه وتوقف أمام معجزات الخالق التى لم يستطع تفسيرها فقال عبارة يحفظها العلماء قال فيها: «إن المؤمنين هم الذين يعلمون علم اليقين أن هناك أشياء تخفى على علمهم» وكأنه يشرح الآية:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء : ٨٥)...

وأعظم علماء العصر بعد أينشتين هو ستيفن هوكنج البريطانى عالم الرياضيات والفيزياء الكونية بجامعة كمبريدج، بعد أبحاث هزت المجتمع العلمى يشير إلى مبدأ يسميه «المبدأ الإنسانى» فيقول: «إن الإنسان يرى الكون بما هو عليه لأنه موجود فيه».. والمبدأ الإنسانى عند هذا العالم الكبير يدل على عقل مدبر يقف وراء هذا الكون، ولن ينازع فى صحة هذا المبدأ أو نفعه إلا قلة من الأفراد، وقوانين العلم تحوى أرقاما أساسية كثيرة محددة ومنضبطة ضبطا دقيقا جدا لتجعل نشأة الحياة ممكنة، مما يؤكد وجود المدبر للكون!! فلو أن الشحنة الإلكترونية كانت مختلفة اختلافا بسيطا جدا عما هى عليه لما أمكن للنجوم إدماج الأيدروجين إلى هيليوم.. وكل شىء على الأرض ملائم لوجود كائنات حية عاقلة هى الإنسان..

والكون يتمدد بالضبط بالسرعة التى تناسب الإنسان.. والمكان له ثلاثة أبعاد طول وعرض وارتفاع.. ولو كان للمكان بعدان اثنان فقط فإن الدورة الدموية لن تكتمل فى جسم الإنسان، وإذا كان للمكان أكثر من ثلاثة أبعاد فسوف تقل الجاذبية بأكثر مما هى عليه الآن مع بعد المسافة بين الجسمين، ومدارات الكواكب لن تكون مستقرة، وأقل تغيير عن المدار الحالى للأرض سيجعلنا نحترق إذا اقتربنا من الشمس ونتجمد إذا ابتعدنا عنها.. والشمس نفسها إذا تغير قانون الجاذبية فى الأبعاد الأكثر فسوف تختل لعدم تعادل الضغط مع الجاذبية الجديدة، وفى هذه الحالة إما أن تتمزق وتنفجر، وإما أن تتقلص لتكون ثقبا أسود، وفى الحالتين لن تكون لها فائدة كمصدر للحرارة والضوء وهما ضروريان للحياة على الأرض..

كل شىء فى الكون منضبط.. وكل شىء بمقدار دقيق بدرجة مذهلة من أجل وجود الإنسان.. ابتداء من خواص المادة على أصغر نطاق وهى الذرة أو على أوسع نطاق فى الكون كله. وكل ما فى الكون ملائم للحياة.. حياة الإنسان فى الأساس.. ولذلك يقول أحد العلماء الكبار (شروذنجر) إن الكون بدون الإنسان أشبه بمسرحية تمثل فى قاعة مقاعدها خالية من المشاهدين.. أليس هذا المعنى الذى وصل إليه العلماء أخيرا هو ما جاء فى القرآن:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية: ١٣)

و﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(البقرة: ٢٩)..

❑ ❑ ❑

العلماء الذين لم يقرءوا القرآن وصلوا بعلومهم إلى تفسير القرآن دون أن يدروا.. ووصلوا بالعلم إلى أن هذا الكون مسخر للإنسان.. وأن الحياة لم تكن مصادفة.. والقوانين التى تحكم كل شىء من الذرة إلى المجرة تدل على وجود نظام بديع غاية فى الدقة.. والتأمل فى خلق الكون الواسع وفى القوانين التى تحكم كل ما فيه لابد أن يوصل إلى الإيمان بالله ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٩١). وسخر الله الكون للإنسان لحكمة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠).

❑ ❑ ❑

وكيف ستكون القيامة؟..

عندما ينفرط عقد الكون هناك تغيرات هائلة سوف تحدث، أشار إليها القرآن مثل تكور الشمس وانكدار النجوم، وتسجير البحار، وزلزلة الأرض، ونسف الجبال وانشقاق السماء وانتشار الكواكب.. ثورة كونية هائلة ستؤدى إلى زوال السموات والأرض وفناء الكون..

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾ (التكوير: ١-٣)

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ (التكوير : ٦)

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾ (التكوير: ١١)

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ (الانفطار)

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾(الانشقاق : ١ -٤)

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الرحمن٣٧)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ (الزلزلة١، ٢)

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ (الحاقة: ١٤)

أشار القرآن لنهاية الكون.. والهول يوم القيامة، ويصل العلماء إلى ما يؤكدها بعد دراسات وأبحاث وحسابات معقدة.. فهل اطلع الرسول ﷺ على نتائج علوم الفلك الحديثة ليعرف أن نهاية الشمس والنجوم هى تكورها وانكدارها؟ ويؤكد العلماء الآن وجود أثقال فى باطن الأرض من الحديد والنيكل فى درجة حرارة خمسة آلاف مئوية وتحت ضغط مليون وأربعة آلاف ضغط جوى، وكأن باطن الأرض جهنم طبيعية تلتهب تحت البحار وتحت الأرض.. ونحن نعيش على ظهر لغم عظيم سوف ينفجر فى أى وقت ليدمر الأرض كلها، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ (الحج:١)

وعندما تصل الشمس إلى أقصى حرارة فإن الجبال سوف تنفجر تلقائيا وتصبح مثل خيوط الصوف المنفوش المتطاير:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ (طه: ١٠٥) و ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ (القارعة: ٥). وسوف يكون مصير الجبال الزوال ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ ﴾ (النبأ: ٢٠) وعندما يحدث التصادم الكونى العظيم وتنفجر جميع المجرات والنجوم والكواكب والأقمار انفجارا هائلا يماثل الانفجار الذى حدث فى بدء خلق الكون ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (فاطر: ٤١) و ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ ﴾ (التكوير: ١١) وفى سورة ابراهيم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ ﴾ و ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤)

❑ ❑ ❑

فى ضوء العلم الحديث لم تعد مسألة نهاية الكون غريبة أو مستحيلة أو غير مفهومة.. أما تحديد موعد القيامة فهذا أمر يعجز العلم عن تحديده، كما أن العلماء يعلمون حقيقة الموت لكل إنسان ويعجزون عن تحديد موعده.. ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ ﴾ (النازعات: ٤٢-٤٤) و ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ (لقمان: ٣٤)..

ولما كان كل شىء له بداية لابد أن تكون له نهاية.. فإن القانون الإلهى الذى يسرى على النملة يسرى على الكون كله..

مرة أخرى . . لماذا لا يدرس التفسير العلمى للقرآن ضمن مناهج الدين فى المدارس؟ أعتقد أن هذا يمكن أن يربط التلميذ أكثر بالمعانى العميقة فى القرآن، ويجعل إيمانه ويقينه بالله وبصدق الرسول محمد ﷺ على أساس متين لا تجدى معه محاولات المشككين والمنكرين والمتآمرين على الدين. ويتناسب هذا التفسير أكثر مع عقلية هذا العصر التى تؤمن بالعلم ويجب أن يؤمن به أبناؤنا ليسايروا العصر، ويشاركوا فى النهضة العلمية، والأهم من ذلك لكى ينشأ الجيل بدون العقدة التى تسببت فى تخلف المسلمين طويلا، وهى عقدة الفصل بين الدين والعلم، وبين الدين والحياة، مع أن القرآن ملئ بالإشارات إلى حقائق وقوانين علمية.. ولكن المدارس تترك هذه الكنوز العظيمة وتكتفى بالتفسير التقليدى اللغوى للقرآن..

هل يمكن أن يكون ذلك موضع اعتبار ، فيكون تدريس الدين بمفهوم صحيح يتناسب مع العصر ويؤهل المؤمن بالله للحياة فى القرن الحادى والعشرين قرن العلم، والمعرفة، والتكنولوجيا؟..

❑ ❑ ❑

لغز الحياة.. ولغز الموت

أمام لغز الموت.. ولغز الحيـاة.. يقـف الإنسـان حـائرا.. وعـاجزا.. وليـس أمامـه مخـرج مـن الحـيرة والعجـز إلا بـأن يـرد كـل شـيء إلى الخالق، الله وحده القادر على صنع المعجزات فى الكون وفى الإنسـان والحيوان والنبات والجماد .. هو وحده القادر علـى أن يصنـع الكـون بكل هذا الكمال، ويجعل كل ما فيه خاضعا لقوانين غاية فى الدقة.

يولد كل شيء ويموت.. إلا الله وحده.. فهو حى لا يموت..

وكل شيء له بداية لابد أن تكون له نهاية.. إلا الله وحده فهو أزلى بلا بداية. أبدى بلا نهاية.. ولو كانت له بداية لكان هناك مـن سـبقه إلى الوجود.. فمن ذا الذى يمكن أن يسبقه؟ ولو كانت له نهايـة لكـان هناك من سيبقى بعده.. فمن الذى يمكن أن يبقى بعده..؟

والحيـاة تبـدو أمـام عيوننـا مثـل نـافورة أو ينبـوع متدفـق بالمـاء باستمرار، وأعمار الناس - بالقياس إلى عمر الكـون - ليست أكثـر مـن لحظات، أو كأنها قطرات ترتفع إلى أعلى فتسير كل قطرة إلى مداهـا، ثم تنتهى حتما بأن تسقط عائدة إلى حيث جاءت..

والأمر-كما يقـول الدكتـور عبدالمحسـن صـالح-يبـدو وكـأن الحيـاة تتخذ من آلاف الملايين من البشر مـادة هائلـة، لإجـراء تجربـة كونيـة عظيمة، تحت إشراف قـدرة عظيمـة فـذة لا مثيـل لهـا، ولـن تتحقـق نتائج هذه التجربة إلا بأن يكون هناك موت، لكى تكـون هنـاك حيـاة

جديدة، قد تكون نعيما أفضل مما سبقها، وقد تكون جحيما أسوأ من الحياة الأولى، ونصيب الإنسان فى هذه أو تلك متوقف على أعماله فى حياته الأولى. والعدل هو القانون الإلهى الأول، والرحمة هى القانون الثانى.

ولغز الحياة حير العلماء.. لم يستطيعوا تفسير اللحظة التى تدب فيها الحياة فى شىء لا حياة فيه.. وإذا وقفنا فقط عند الجسم الحى فإن معظم علماء الحياة يعتبرونه بمثابة جهاز مغلق معقد بدرجة مذهلة، هذا الجسم يستهلك نفسه باستمرار، ومنذ اللحظة التى تدب فيه الحياة يبدأ رحلة الموت.. ويتقدم نحو الشيخوخة، رغم ما فيه من قدرة عظيمة على أن يرمم التآكل الذى يحدث فى خلاياه، ففى كل ثانية من حياة الإنسان - مثلا - يستهلك جسمه ما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين خلية دموية، أى إن استهلاكه من تلك الخلايا فى الساعة الواحدة يفوق عدد سكان العالم خمس مرات على الأقل. وما يتم استهلاكه من الدم يذهب إلى الطحال ليهدمه، بينما مولدات كرات الدم الجديدة تعمل بنشاط وهمة فى النخاع لتدفع إلى الدم بجيوش جديدة من هذه الخلايا.

هذا كله يحدث داخل جسم الإنسان دون أن يدرى. وأكثر من ذلك فإن الجسم يستهلك من خلاياه حوالى ١٢٥ مليون خلية فى كل ثانية أى ٧٥٠٠ مليون خلية فى كل دقيقة، وفى جسم الإنسان البالغ حوالى ألف مليون مليون خلية حية، والطبقات السطحية للجلد التى تتآكل وتستهلك باستمرار، يقوم الجسم تلقائيا بتعويض الفاقد والتالف منها أولا بأول، والخلايا المبطنة للأمعاء - مثلا - تستهلك عشرات الملايين من هذه الخلايا، والكبد والكليتان أيضا يستهلك كل منهما عشرات

الملايين، وهكذا يتم تجديد جميع خلايا الجسم، فيما عدا خلايا المخ والأعصاب، فهى فقط الخلايا التى لا يتم تعويضها..!

ونحن نأكل باستمرار، ولو دخل كل ما نأكله فى بناء أجسامنا لأصبحت أجسامنا من الضخامة التى تفوق عمالقة الأساطير، ولكن الجسم يهدم بعض جزئياتية البروتينية هدما بطيئا ومستمرا دون توقف، وتخرج نفايات هذه الجزئيات البروتينية عن طريق الكليتين، على هيئة مركبات بسيطة مع البول، ثم يستفيد الجسم من بروتينات الطعام بعد أن تكون قد تحللت فى الأمعاء إلى أحماض أمينية بسيطة، يعوض بها الجسم ما تهدم بجزئيات بروتينية جديدة، وهذه أيضا تدخل فى عمليات كثيرة، مثل بناء العضلات والأنسجة، وهكذا تسير فى جسم الإنسان عمليتان متناقضتان فى وقت واحد: استهلاك الخلايا بآلاف الملايين كل يوم، وبناء خلايا جديدة بآلاف الملايين، وهدم جزئيات حيوية فى الجسم وبناء جزئيات أخرى جديدة أكثر حيوية، ويتوقف على الكفاءة التى تتم بها هاتان العمليتان سرعة أو بطء الشيخوخة للإنسان.

❑❑❑

وحين يموت الإنسان فإن الذى يموت فيه فقط هو مادته الحية، أما المواد التى كان الجسم يحتويها فتظل موجودة على هذا الكوكب، ويعاد بناؤها من جديد، تماما مثل أحجار البيت المهدوم، يعاد تركيبها فى بناء بيت جديد، أو كما تقوم بعض الصناعات على إعادة تدوير النفايات.. فالحياة قائمة على إعادة تدوير المخلفات كما يحدث

فى صناعة الزجاج من بقايا الزجاج المكسور مثلا. ولا فرق بين بقايا جسم الإنسان وبقايا أجسام غيره من الحيوانات والحشرات فكلها تدخل فى بناء الحياة الجديدة دون تفرقة أو تمييز، وهذا هو المعنى الذى جسده الشاعر حين قال:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

ومعجزة الخلق والخالق تتجلى فى كل جزء من أجزاء الإنسان وكل وظيفة من وظائفه، حتى الخلية الجنسية التى لا ترى بالعين المجردة فإن فيها كل الصفات الوراثية التى سيكون عليها الإنسان إذا حدث التلقيح وتم الحمل.. فى هذه الخلية الدقيقة غير المنظورة يتحدد طول الإنسان الذى سيولد، ولون شعره وعينيه، وهل هو ذكر أو أنثى، وبصمات أصابعه، وشكل أسنانه وأنفه وعظامه.. وتتحدد أيضا الأمراض الوراثية التى سيصاب بها فى أى مرحلة من مراحل عمره.. كل خلية جنسية فيها خريطة وراثية كاملة للمخلوق الجديد المحتمل..

❑ ❑ ❑

والإنسان يتفق مع الحيوانات فى بعض الصفات، ولكنه أرقى المخلوقات فى مملكة الحيوان، وقد ميزه الله بالعقل والحكمة والذاكرة، فهو يختزن الأحداث بطريقة عجيبة ويستدعيها، وقد يراها أمامه مثل فيلم سينمائى بالصوت والصورة.. وفى المخ تتواجد حواس السمع والبصر والذوق والشم..

وللدكتور عبد المحسن صالح أمثلة لطيفة لتقريب معنى المعجزة فى خلق الإنسان، فلو افترضنا أننا استطعنا تصنيع جهاز يقوم بعمل المخ

فإنه يحتاج إلى مائة بليون بليون توصيلة، ولو افترضنا أن كل توصيلة تكلف قرشا واحدا، فإن التكلفة ستكون فى حدود بليون بليون جنيه..! فإذا تصورنا قدرتنا على إمداد هذا المخ بالطاقة التى وهبها له الله فسوف يلزم لكل إنسان مليون كيلووات من الكهرباء على الأقل، فكأن تكلفة مخ إنسان واحد تفوق كل ميزانيات العالم مجتمعة بأضعاف مضاعفة وبعد ذلك فإن هذا المخ الصناعى لن يستطيع أن يقوم بما يقوم به المخ البشرى الذى خلقه الله.

وبحسابات الدكتور عبد المحسن صالح فإن الإنسان طاقة، ولكى نعرف حجم المعجزة فى هذه الطاقة، فإن الكيلو جرام من كبد إنسان أو من أمعائه يمكن أن يتحول إلى طاقة كهربائية تنير عشرة مصابيح كل منها ١٠٠ وات لمدة مليونين و ٨٥٠ ألف سنة.. وفى جسم الإنسان من مادة الكربون ما يكفى لصناعة ٩ آلاف قلم رصاص على الأقل، ومن الفوسفور ما يكفى لصناعة ٢٢٠٠ رأس عود كبريت، ومن الماغنسيوم ما يكفى لتجهيز شربة ملح، ومن الحديد ما يكفى لصناعة مسمار متوسط الحجم، ومن الجير ما يكفى لدهان حظيرة دجاج صغيرة، ومن البوتاسيوم ما يكفى لصناعة قذيفة من قذائف الأطفال، ومن الكبريت ما يكفى لتخليص كلب من البراغيث (!) وكل هذا لا يساوى الكثير، ولكن لا يمكن أن نقيم الإنسان بما فيه من عناصر موجودة فى الطبيعة حولنا، ولكن المعجزة أن هذه العناصر الموجودة فى التراب يخرج منها ذلك المخلوق.. فإذا نظرنا إلى الإنسان على أنه مادة فما أرخص هذا الإنسان، وإذا نظرنا إلى السر الكامن فى الإنسان فسوف نقف خاشعين أمام معجزة الخلق والخالق.

والمعجزة الإلهية تتجلى فى كل جزء من أجزاء الإنسان الحى.. القلب ينبض فى اليوم الواحد مائة ألف نبضة ليضخ أكثر من ٦٥٠ كيلو جرام من الدم وهو يعمل ليل نهار بلا انقطاع.. والكبد مصنع عظيم يخزن، ويوزع، وينتج، ويصنع، ويحلل، ويقوم بعمليات لو وزعت على أعظم معمل كيميائى فإنه سيحتاج إلى معدات هائلة ومساحة بالأفدنة وآلاف من العلماء.. وسيكون الكبد أكفأ منها وأسرع وأدق! كذلك الخلايا العصبية التى تسهر على الإنسان ليلا وهو نائم، وتوجهه بالنهار فى يقظته، وتعمل كشبكات رادار عظيمة، تلتقط الأحداث الجارية حول الإنسان، وتبعث بها إلى المخ، ليقوم بفك شفراتها بسرعة متناهية، ويبعث بتعليماته لكى تتجنب حجرا، أو تبتعد عن كلب مسعور، أو تتمتع بالجمال، أو تنفعل ثائرا أو سعيدا، أو تجرى للهروب من مأزق.

المعجزة أن أساس الحياة واحد فى أحط مخلوق وأعظم مخلوق، ولو تعمقنا فى الأسس الحيوية الكيميائية لكل المخلوقات، فسنجد أنه ليس هناك ما يمكن اعتباره أحط مخلوق، لأن عظمة الخالق تتجلى فيه كما تتجلى فيمن نظن أنه أعظم مخلوق.. سر الحياة فى كل الكائنات واحد.. لأن الخالق واحد.. حتى فى الميكروب الذى لا تراه العين.

ومعجزة كبرى نعايشها ليل نهار، ولا نفكر فى كيفية حدوثها، ولكن العلماء فكروا فيها وكانت موضوعا للبحث فى المعامل، كما فعل البروفيسور فيلكس اشتراموازر فى معهد التكنولوجيا بكاليفورنيا بحثا عن سر عويص من أسرار الحياة، هو سر احتفاظ الخلايا العصبية فى الإنسان بالمعلومات.. وكان السؤال الذى أراد أن يبحث له عن إجابة

هو: كيف يستوعب الإنسان أرقام التليفونات أو الأتوبيسات، وكيف يحتفظ بالتواريخ وبأسماء الناس وعناوين الأماكن، وكيف يستطيع الإنسان أن يستدعى هذه المعلومات فى أى وقت يشاء..؟ وما هو سر الكراهية بين الفأر والقط..؟

وبدأ هذا العالم تجاربه على ذاكرة أبسط المخلوقات، واختار قواقع وضعها فى حوض ملىء بالماء.. وأراد من هذه التجربة العلمية أن يعرف: هل للقواقع ذاكرة؟ ومخ القوقعة ليس إلا عقدة عصبية صغيرة، ومع ذلك كان يحضر لها الطعام فى ساعة معينة كل يوم ويضىء مصباحا مسلطا على الماء فى لحظة تقديم الطعام، ويطفئ المصباح فى المساء، ويعود فى ذات الموعد فى الصباح ليقدم الطعام ويضىء المصباح وبعد أيام أضاء المصباح ولم يقدم الطعام فوجد القواقع تتحرك فى الحوض بحثا عن الطعام.. وتوصل من ذلك أن القواقع تعلمت واحتفظت فى ذاكرتها بوقع الأحداث، وربطت بين الضوء وبين الطعام، وباستخدام جهاز إلكترونى متصل بمخ إحدى القواقع سجل ارتفاع عدد النبضات فى مخ القوقعة كلما أضاء المصباح ووضع الطعام.. وهكذا كشف لنا أن خلية واحدة فى مخ أبسط الكائنات تحتفظ بالمعلومات التى تتلقاها، بل وجد أن عدد النبضات يزيد مرة كل ١٤ يوما مع موجه المد فى البحر وهذا دليل على أنها تعطى إشارة للقوقعة لكى تزحف على الصخور حتى لا تغمرها المياه العالية..

فإذا كان ذلك يحدث فى أبسط كائن، فما الذى يحدث فى مخ الإنسان، وقد منحه الله دون سائر المخلوقات نعمة التأمل، والتفكير، والتذكر، والخيال، والابتكار..؟ أية معجزة هذه ؟

كل ما فى الحياة معجزة.. والموت هو المعجزة الكبرى!

ولو لم يكن هناك موت، ودامت حياة الإنسان والحيوان والحشرات فكيف كانت ستصبح الحياة..؟ كانت الحياة ستصبح راكدة.. بلا تجديد.. فالموت والحياة هما صورتان لحقيقة واحدة، أو هما وجهان لعملة واحدة، تؤدى كل منهما إلى الأخرى.. وكل جسم حى يموت فتذهب منه الطاقة، وتبقى المادة، وكل ذلك وراءه حكمة إلهية بالغة: ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (الحج : ٥).

وقوانين الحياة والموت التى تسرى على الإنسان تسرى أيضا على الحيوان بل وتسرى على المجتمعات..

فى حديقة الحيوان، عندما تقف أمام «جبلاية القرود» يلفت نظرك قرد كبير له هيبة، يجلس وحده على قمة عالية، وحين يمشى يبدو وكأنه صاحب عظمة وسلطان، وتفسح له القرود الطريق، وإذا بدأ الطعام لم تستطع القرود الأخرى أن تقرب من طعامه، وإذا زمجر وغضب ارتعدت القرود لغضبه.. هذا رئيس أو ملك القرود.. فهل مملكة القرود تختلف كثيرا من مملكة الإنسان؟ وهل للأفيال فى الغابات إدراك لتختار لها قائدا يقودها؟ وهل للنمل والنحل إدراك ليكون لها فى مستعمراتها ملكة ويكون الكل فى خدمتها ورعايتها والمحافظة عليها؟

هل نجد فى هذه الملاحظات البسيطة ما يعين على فهم حقيقة من حقائق الحياة الإنسانية يقول عنها الخالق سبحانه:

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ (الزخرف : ٣٢) . ويقول سبحانه: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (الإسراء : ٢١).

ألا يدعونا ذلك إلى تأمل المعجزة فى خلق الإنسان وقد ميزه الله بالعقل وبالحرية وبالتالى فإنه يتحمل المسئولية عن أعماله.. فالإنسان يتمتع بالقدرة على التمييز بين الخير والشر، وبين العدل والظلم، وبين الخطأ والصواب، وبين النافع والضار.. فهو أرقى مخلوقات الله.. وهو قمة المعجزات.. وإذا كان الإنسان يشترك مع الحيوان فى أنهما يشتركان فى الغرائز الأساسية (الطعام - الجنس.. الخ) وفى الانفعالات (الخوف.. الغضب.. الحب.. الخ) إلا أن الحيوان ليس له تاريخ.. وليست له حضارة أو ثقافة ولا يضيف إلى العلم والمعرفة.. ولا يعرف الطموح..

وكما أن أكبر كارثة تصيب جسم الإنسان وتؤدى به إلى الموت حتما تأتى من داخله، كذلك فإن أكبر كارثة تصيب المجتمعات وتؤدى إلى انهيارها تأتى أيضا من داخلها..

إن خلايا الجسم تعمل فى اتزان ونظام لصالح المجموع، أى لصالح الجسم نفسه، فإذا فقدت خلية اتزانها فإنها تتقسم وتنقسم وتزداد وتتشعب فى أنحاء الجسم بفسادها، وتزداد حالة الشراهة عندها حتى تقضى على الجسم كله.. هذه هى الخلية السرطانية.. كذلك فى

المجتمعات.. يبدأ الفساد صغيرا ومحدودا.. فى فرد واحد أو عدة أفراد، فإذا لم يتم القضاء على هذا الفساد مبكرا جدا فإنه يزداد عددا وقوة، ويستشرى، ويتضخم، حتى يستحيل علاجه ويصل بالمجتمع إلى الانهيار.

ومعنى ذلك أنه كما يموت الأفراد، تموت الشعوب والدول، إلا أن موت الشعوب والدول يتمثل فى اضمحلال قوتها وضعف قدرتها على الصمود للحفاظ على كيانها، فتذوب فى قوى أكبر كانت أكثر قدرة على المحافظة على كيانها وأصبحت أكثر وعيا وتطورا.

إن أعداء خلايا الجسم هى «الميكروبات» وهى خلايا دقيقة متشددة، تحوم حولنا ليل نهار، فى الهواء الذى نستنشقه، وفى الماء الذى نشربه، وفى الطعام الذى نأكله: الخ فإذا استطاع الميكروب أن ينفذ من خط الدفاع الأول فى الجسم وهو الجلد والخلايا المبطنة للأنف والزور والأمعاء.. الخ فإنه يتكاثر بالملايين، وهنا يظهر له خط دفاع ثان متمثلا فى خلايا مقاتلة تدور فى الدم باستمرار هى كرات الدم البيضاء، وتدور معركة ضارية ينتصر فيها أحد الطرفين.. ويتوقف النصر على قوة ومقاومة كل طرف.. فإذا فشل خط الدفاع الثانى يظهر خط الدفاع الثالث متمثلا فى «الأجسام المضادة» وهى بروتينات متخصصة تهاجم الميكروبات..

والدرس أن الجسم يستطيع غالبا أن ينتصر على الأعداء الخارجيين وهى الميكروبات، ولكنه ينهزم غالبا من أعداء الداخل وهم الخلايا السرطانية.. والسرطان فى جسم الإنسان ليس إلا نتيجة «الانتهازية» و «الفساد» فى خلية أو عدد من الخلايا.. والسرطان فى المجتمع ينشأ بنفس السبب، ويتطور بنفس الطريقة وينتهى بنفس النهاية.!

والعلاج الوحيد هو البتر إذا تم مبكرا.. بتر العضو المصاب بالسرطان فى الإنسان قبل أن ينتشر السرطان فى الجسم كله ويكون الموت محتوما.. وكذلك بتر الفساد مبكرا ومهما يكن صغيرا قبل أن ينتشر ويقضى على المجتمع.

وعلى الإنسان أن يتعلم التواضع، فيتعلم من الحيوانات والحشرات ولا يأخذه الغرور والكبرياء.. فهى مخلوقات أودع الله فيها أسرارا ومعجزات لا تقل عما فى الإنسان.. على الإنسان أن يتعلم من النملة.. لماذا انتشر النمل على الأرض واستحالت هزيمته والقضاء عليه.. لأنه كائن منظم، كادح، مدخر، مدبر، مع أنه ليس له عقل كعقول البشر، ومع ذلك فكم من البشر من أصحاب العقول لا يأخذون العبرة من النملة.

الإنسان سيد المخلوقات.. نعم.. وأقوى المخلوقات بالعقل والتفكير.. ويستطيع أن يهزم أعداءه بالقوة والحيلة وبما لديه من مخترعات وأسلحة فتاكة.. ولكنه ضعيف.. إلى حد أن الفيروس الذى لا يمكن رؤيته بالعين المجردة يمكن أن يقضى عليه.. وخلية سرطان واحدة يمكن أن تقضى عليه.. وهذا أدعى إلى أن يعيش الإنسان وفق منهج الله.. لأن عصيان الله هو خروج عن منطق الحياة، وعن قانون الطبيعة، وعن شريعة الحق.. ونتائجها خسارة لا تعوض فى الدنيا وفى الآخرة.

ويكفى أن يتأمل الإنسان فى معجزة الحياة ومعجزة الموت ليدرك كم يساوى هو.. وكم تساوى الدنيا.. وكم تساوى الآخرة.. وله بعد ذلك أن يختار طريقه فى التوفيق بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة.. وهذا ممكن.. بل هو الطريق الوحيد للنجاة..

❑ ❑ ❑

خاتمة

كانت خلاصة أبحاث الدكتور منصور حسب النبى:

أولا: أن العلم بلا دين، والدين بلاعلم،كلاهما مرفوض فى الإسلام، ولابد من الجمع بينهما ، واستند فى ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ (الحج :٥٤) و﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ العنكبوت (٤٩)

و﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (آل عمران : ١٨).

وثانيا : أن الإسلام يرفع من شأن العلماء كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(الزمر٩)

و﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ (المجادلة : ١١).

وثالثا:أن العلم فى القرآن هو ما يعتمد على البرهان والدليل : ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾(البقرة :١١١) و ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ (الأنعام : ١٤٨) ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (يونس: ٣٦)

ورابعا : أن القرآن يطالب المؤمن بالاعتماد على المنهج العلمى التجريبى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء: ٣٦)

وخامسا: أن الله يدعو الناس إلى النظر والتدبر ودراسة كل ما فى الكون للوصول إلى العلم والإيمان معا، وتأسيس الإيمان على الأدلة المادية والعقلية:

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يونس: ١٠١).

وسادسا: أن الله يدعو إلى ما يسميه العلماء الآن «المنهج الاستقرائى» فى البحث عن كيفية تركيب الأشياء:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية: ١٧ — ٢٠).

وسابعا: أن القرآن ينهى عن التقليد الأعمى فى العلم والإيمان:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (المائدة: ١٠٤)

وثامنًا: أن الله يدعو الإنسان إلى استخدام العقل على أنه أحد أركان العبادة للوصول إلى ما وراء الظواهر الطبيعية والإنسانية ومعرفة السبب والمسبب لكل منها:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ البقرة (١٦٤)

وتاسعًا: أن العلم ليس له حدود يقف عندها، وعلى الإنسان كلما ازداد علما أن يطلب المزيد: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه (١١٤) و ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء (٨٥) و ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف : ٧٦).

وعاشرًا: أن هدف البحث في معجزات الخلق والخالق، والتفسير العلمي للقرآن، إثبات صدق الوحي لغير المؤمنين، وتثبيت إيمان المؤمنين: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فصلت (٥٣).

وهكذا نجد أنفسنا أمام حقيقة أنه لا تعارض بين العلم والإيمان، بل إن العلم يقود إلى الإيمان، والإيمان يشجع على البحث العلمي، وليس صحيحا ما يدعيه بعض الفلاسفة من أن هذا العصر هو عصر

العلم وليس عصر الإيمان لأن البشرية وصلت إلى مرحلة النضج والمقدرة وامتلاك وسائل المعرفة العلمية وقد انتهى عصر الميتافيزيقا والغيبيات الذى كان مرتبطا بطفولة البشرية حين كانت تعانى الحيرة أمام الظواهر الطبيعية والكونية بسبب عدم اكتمال نضجها ومقدرتها على الوصول إلى الحقائق وأسباب هذه الظواهر التى كانت تدفع الإنسان إلى الحيرة.

وقد أثبت منهج التفسير العلمى للقرآن الذى أبدع فيه الدكتور منصور حسب النبى وكثيرون جاءوا قبله وبعده أن البشرية كلما ازدادت نضجًا وتقدما، وكلما ازدادت علما ومعرفة، فإنها تزداد إدراكا لمعجزات الخلق والخالق فى الكون، وفى الجماد والنبات والحيوان والإنسان، فتزداد إيمانا بالله ويقينا بكتابه.

وإذا لم يكن هذا المنهج فى التفسير العلمى للقرآن موضع اتفاق من الجميع، فهو على الأقل ليس موضع رفض من الجميع، والله يهدى من يشاء.

❑ ❑ ❑

المحتويات

مقدمة ٥

فى الكون سر يحير العلماء ١٥

قضية التفسير العلمى ٢٧

هل نحاكم العقاد أيضا ؟..... ٣٩

العلم هو المدخل للإيمان ٥٠

هل التفسير العلمى حرام ؟ ٦٠

رأى الإمام الأكبر ٧١

قواعد المنهج للتفسير العلمى ٨١

المعجزة فى الإنسان والنملة ٩٣

كتاب الله المفتوح ١٠٩

بين العلم والإيمان ١٢٠

اينشتين اكتشف أسرار القرآن ١٣٢

كيف يقرأ العلماء القرآن ؟ ١٤٤

رواد الفضاء عادوا بتفسير جديد للقرآن ١٥٤

حتى النجوم تولد وتموت ١٦٧

لغز الحياة ولغز الموت ١٨٣

خـــاتمة ١٩٤

رقم الإيداع	٢٠٠١/١٧٦٤٤
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6234-X

١/٢٠٠١/٥٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)